جودت جالي
فكّ الحزن
JAWDAT JALI
الرّوسم
AL-RAWSAM
قصص
جودت جالي
فك الحزن
قصص
تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح
الرّوسم
فك الحزن
بغداد - شارع المتنبي - مجمع المالي التجاري
هاتف: 07714247592

فكّ الحزن

قصص

الكتاب: فكّ الحزن

الكاتب: جودت جالي

الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ/٢٠١٦م

عدد النسخ: ٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الناشر: الروسم

للصحافة والنشر والتوزيع

بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي التجاري

هاتف: ٠٧٧١٤٢٤٧٥٩٢

E - Mail: zaeemalnassar@yahoo.com

www.alrawsam.com

الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح

لا يسمح بإعادة طباعة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تصويره أو نسخه بأي شكل كان إلا بإذن خطي من المؤلف.

All rights reserved
No part of this publication may be reproduced in any form or by any means without permission in writing from the author.

جودت جالي
Jawdat Jali

فكّ الحزن

قصص

بلابل برية

خرج الرجلان من الباب الجانبي للمسجد المجاور للمستشفى الذي كانا فيه قبل ساعة. كان الشيخ يحمل على راحتيه جثة الوليد الأكبر ملفوفة بالكفن فيما حمل الشاب جثة التوأم، الملفوفة أيضا بكفن، واضعا إياها لصق صدره. ضربتهما شمس أول العصر الشتوية بحرارتها الساطعة، وكاد الشيخ أن يرتبك في مشيته عندما إرتد الى عينيه الذابلتين وميض الإسفلت. تماسك وإعتدل وتابع سيره كأنه يغرز خطواته في الأرض خطوة خطوة. مرا في طريقهما الى الزقاق بين العمارات السكنية ببواب المستشفى الذي كان يتثاءب وهو جالس على كرسي حديدي عتيق. أنزل يده عن فمه وقال بصوت أقرب الى التمتمة الخجول:

- الله يصبركم حجي...

لم يجبه أي منهما، وتوجها نحو الزقاق. عند الإستدارة أحاطت بهما هبة ريح مغبرة تحمل قصاصات ورق متطايرة آتية من الشارع

الرئيس ألصقت دشداشتيهما بجسديهما. عندما وصلا الشارع كانت لا تزال الريح الخفيفة تثير غبارا وحبات رمل ناعم من أمام محلات العمارات المقابلة المغلقة المتجاورة بغير نظام من الجانب الآخر. دارت أوراق من أغلفة البسكويت الملقاة على الأرض وقنينة بلاستيكية فارغة حول عمود الكهرباء الذي وقفا عنده. بدا الحر للشيخ شبيها بحر الصيف. انحازا الى ظل ركن العمارة ووقفا هناك يديران البصر بحثا عن سيارة تقلهما. فكر الشيخ بأن اليوم غير عادي وكئيب في كل شيء، موت هذين الوليدين، ومنع التجوال، والشوارع الفارغة تماما. انسحب الناس الى بيوتهم. حتى سائقو سيارات الأجرة لا يوجد منهم أحد. لكنه شعر في قرارة نفسه بالراحة لأنهما يخرجان هكذا من المستشفى دون أن يصادفا أحدا، ولن يضطر الى أن يشرح لمن يدفعه الفضول الى السؤال عما حدث. حتى التعاطف الذي يمكن أن يبديه الآخرون هو آخر ما يتوق اليه في هذه اللحظات.

كان الشاب ينظر بارتباك الى ما حوله. أنزل يده اليسرى جاعلا الطفل على ساعده الأيمن فيما أمسكه برفق من قدميه بيده لكي لا ينزلق. أحس الشيخ بخدر يسري في يديه وكان الطفل على راحتيه لا يزال يحتفظ بشيء من برودة. حرك أصابعه من الخدر فأحس باللحم الغض تحت أطرافهما يستجيب لضغطها. خنقته العبرة ولكنه قاومها. سمع من نافذة شقة في الأعلى صوت طفل

يبكي وصوت أمه تعنفه. نظر الى أقصى الشارع الذي يلتمع التماعا وسخا. لا سيارة، ولا أحد. تناهى اليهما صوت يشبه صوت انفجار بعيد وأصوات إطلاقات من مكان أقرب.

قال الشاب متلعثما وهو يمد يده الطليقة نحوه:

- هل أحمله عنك عمي؟

لم يجبه. تحسس جيب الصدر حيث وضع ورقتي الوفاة. ابتسم بأسى. ما أن ولدا حتى ماتا. ندم لأنه كان هو الذي أطلق اسميهما عليهما، لا يدري لماذا ندم، شيء ما يحز في نفسه، هل يلوم نفسه لأنه سمى طفلين كتب عليهما الموت بعد ساعات؟ ألم تكن تسميته لهما (سعيدا) و (فريدا) إسرافا في التفاؤل خصوصا وإنهما ولدا قبل الأوان؟ هل تمنى أن يكون الإسمان تميمة تحفظهما وتدفع عنهما الموت فتسعد بهما أمهما، ابنته، بعد أن أسقطت طفلين سابقين؟ مسح بردنه المتجعد جبينه من العرق المالح الذي بدأ ينزل على حاجبيه ويتسرب منهما الى عينيه. حسنا فعل حين أخرجها من المستشفى بالأمس بعد أن أُدخل الطفلان الى قسم الخدج ولم تشهد موتهما. لكنها أحست، أحست في أعماقها أنهما ربما يموتان، وفي الوقت نفسه كانت تكافح مع أملها في أن يعيشا، مع ذلك، عندما كان بالأمس جالسا الى جوارها في البيت وهي على فراشها، قبل أن يعود مع زوجها الى المستشفى، أشارت اليه أن يدنو منها لتكلمه، فقرب أذنه من فمها. ترددت قبل أن تقول بصوت ضعيف حزين متقطع:

- أبـي.... اللّه يخليك. إذا مـاتـا.... أحفر لهما قبرا عميقا. يقولون أنـه في مقابر الأطفال...تأتي حيوانات ف...، لا أريـد أن تأكلهما الحيوانات...

وسكتت.

عندما تـوفي الصغير لم يكونا قـد عـادا الى المستشفى بعد. كان ضعيفا وأصغر جسما من توأمه. قضى الشيخ وزوج ابنته في حديقة المستشفى الليل حتى بزوغ الفجر. أخيرا توسل لكي يسمحوا له بالدخول ليكون قـرب الوليد البـاقي على قيد الحيـاة. توسل بالجميع... بموظف الاستعلامات، بالممرضة، بالطبيب... أخيرا سمحوا له بالدخول الى قسم الخُدَّج على أن يبقى على مبعدة من الجهاز والطفل. قبل أن تخرج الممرضة وتتركه وحده أسرت اليه بصوت مواس:

- حجي.. أرجو أن لا تصدم بما سأقوله لك ولكن يتوجب علي أن اخبرك بأن الطفل الثاني.. ليس كما يبدو لك.. يعني... لا..

سكتت لحظة ثم تابعت قائلة:

-...هو ضعيف أيضا وربما...

نظر بعينيه المرهقتين اليها محاولا أن يستشف من وراء كلماتها «ربما» يتساوى فيها الأمل واليأس على الأقل، شيئا يعلل النفس به ولو الى حين. لكن كل ما في وجهها من تعابير كان يؤكد له أن «ربما» هذه لن تكون معينة له في المراوغة التي يغري نفسه بها. أطرق وهز

رأسه مستسلما فيما انسحبت الممرضة خارجة.

جلس على كرسي دون مساند واستند بظهره الى الحائط. جال ببصره في الغرفة المربعة الواسعة التي بدا له الجو فيها حارا قليلا على نحو لا ينسجم مع تصوره لما يجب أن يكون عليه الجو في غرفة إسعاف الخدج، نظر الى أضواء النيون الصفراء الخابية، الأجهزة الخمسة الأخرى الفارغة بأغطيتها البلاستيكية الشفافة وأنابيبها المفضية الى فراغات رصاصية بارتخاء ثقيل السكون. شيء ما يتكتك، وخيل اليه أنه يسمع تقطيرا ما، نظر بإمعان الى الجهاز الذي يضم الجسد الصغير، وأنبوب المغذي، وإشرأب برأسه الأشيب ليرى جيدا وضع الوليد. كان أكبر جسدا وأقوى من توأمه الذي لم يقاوم طويلا سكرات الموت في الجهاز الثاني المجاور والفارغ الآن بعد أن ذهبوا بالطفل الى ثلاجة الموتى، لكن هذا كان طبيعيا في حركاته ونشطا أول الأمر حتى أنه أمسك بالأنبوب حين أوصلوه به وبكى ما جعل الممرضة تضحك وتقول له مازحة: «ولك... خلينا نشتغل!». شعر رأسه فاحم السواد، وحاجباه كثان، وملامح وجهه تنبئ عن وجه مدور جميل بعينين واسعتين وفم صغير وأنف أفطس قليلا، وبدا له أنه سلب من شقيقه كل الحيوية التي قسمت لهما عندما كانا في بطن أمهما. لكنه الآن أصبح أقل حركة ويهوم بيديه يمينا ويسارا بوهن، وعلى وجهه ارتسم عبوس ذاهل كمن يرى شيئا لا يفهمه، ويخيفه. اتسع فمه وندَّ منه شبه صرخة متداعية

وبكاء مكتوم. كأن روح شقيقه تحوم حوله، تجذب روحه، وهو ما بين الانقياد للدعوة الحميمة والرفض الوجل يتأرجح، أخيرا ارتخت ذراعه اليمني واستقرت الى جانبه فيما همدت يده اليسرى على الأنبوب المار من فوق صدره وجمدت عيناه بنصف إغماضة وادعة. لم يتحرك الشيخ رأسا أو يهرع لينادي طبيبا أو ممرضا. ظل هكذا ينظر الى الطفل الجامد، لم تكن نظرته استسلاما، لعلها كانت رضا، ولعله قال في سره خير له أن يلحق بشقيقه بأسرع وقت ما دام قد كتب عليه الموت من أن يظل يتألم ألما لا يفهمه، لا بل هل كان يعي أنه ألم؟ ترى هل رأى شيئا من الدنيا التي حوله فيما قسم له من ساعات أم ولد ومات في دوامة من احتضار مبهم؟

.....

قال الشاب بصوت خفيض:

- والآن...

قال الشيخ:

- لابد أن تمر سيارة... قد يخرج بعض الناس الى شؤونهم القريبة بعد قليل. لا نتوقع أن يوصلنا أحد الى مكان بعيد... إذا لم نجد من يوصلنا سيكون علينا أن نسير... هذا الشارع نفسه يوصلنا الى سدة النهر.

سمع خلفه صوت محرك سيارة آت من الزقاق. استدار بكليته ورأى سيارة الشرطة قادمة نوع شيفروليت نقل. تصور أنها نفس

السيارة التي جاءت بالشرطي المصاب ليتلقى إسعافا عاجلا هذا الصباح، ولكن حين توقفت عندهما ونظر الى السائق والجالس معه في المقعد الأمامي، تأكد من الصناديق الكارتونية في الصندوق الخلفي أنها ليست هي بل سيارة توزع الأرزاق الجافة على نقاط الحراسة. سأله السائق البدين شديد السمرة مبتسما بأدب:

- حجي الى أين تريدان الذهاب؟

أجاب بارتياح ممزوج بالتوسل:

-الى السدة... عند مقبرة الأطفال.

أشار له السائق بحزم أن إصعدا. اعترض مرافقه قائلا:

- لكن طريقنا ليس من هنا و...

أسكته السائق بنظرة توبيخ وهو يعدل وضع البندقيتين اللتين أسنداهما بينهما:

-سنوصلهما ونستدير من هناك نحو جماعتنا عند الجسر.. السدة قريبة.

جلس الشيخ والشاب في المقعد الخلفي. اندفع السائق بالسيارة فأصدرت صوتا عاليا من العجلات التي دارت أول الأمر بسرعة كبيرة أثارت دفقة من الغبار حولها ورشقة من الحصى.

وضع الرجلان الطفلين المكفنين كل في حضنه. قال الشرطي المرافق بحنق:

- لقد استلم الضابط قبل قليل نداء... أولئك الـ..... هاجموا

الجسر من جهة البساتين لكنهم تراجعوا بعد أن شاغلوهم جماعتنا حتى وصلت طائرة الآباتشي فاختفوا.

ثم التفت الى الخلف، اليهما، بنظرة متأملة لم يتبين منها الشيخ لتعاطفه معنى واضحا، ثم وبنفس النظرة الرمادية نظر الى الطفلين وهز رأسه متمتما بكلمات غير مسموعة واعتدل في جلسته ناظرا أمامه نحو رتل من الهمرات قادم من جهة السدة. أشار السائق الى الذين يستقلون الهمرات إشارة التحية.

أصبحت السيارة تسير في شارع لا تحفه البنايات من الجانبين بل بضعة بيوت هنا وهناك قيد الانشاء ثم وصلت الى أرض فضاء لا يوجد فيها سوى نباتات برية يابسة مصفرة متفرقة وعلى مبعدة من الشارع الى اليمين أرض واسعة مسيجة بالآر بي سي، وداخل السياج، في الركن الأيمن بناية واطئة بسيطة بنيت من الطين وكسيت جدرانها بالملاط الأبيض الكالح منذ زمن بعيد، والى جانبها وخلفها بدت معالم قبور صغيرة مرت عليها سنوات حتى نبتت الأشواك والأعشاب بينها وفوقها. أمام هذه البناية طلب الشيخ من السائق التوقف متمتما بعبارة شكر وامتنان. نزل والشاب وسط الغبار الذي أثاره توقف السيارة على جانب الطريق الترابي. انطلقت السيارة نحو السدة وصعدتها متجهة غربا نحو البساتين التي يقع خلفها الجسر.

وقفا عند الباب الحديدي المكون من قضبان حديدية متصالبة.

أدارا بصرهما في المكان فلم يريا أحدا. نادى الشيخ:

- من هنا؟

كرر النداء مرات قبل أن يلحظا من كوة في جدار الغرفة شخصا يتحرك ويسمعا صوت الباب الخشبي يفتح بصعوبة أو بتردد وأخرج رجل رأسه من الفتحة الموارية لينظر ثم لما تبين له أنه لا يوجد في الخارج غير شيخ وشاب يحملان طفلين مكفنين خرج دون أن يفتح الباب على سعته حاملا بيده بندقية كلاشنكوف، وقبل أن يتقدم نحوهما تلفت كأنه يريد التأكد من عدم وجود آخرين وأطال النظر نحو السدة ثم نحو هياكل البيوت. مشى بحذر حتى صار أمامهما في الجانب الآخر من البوابة ووقف ينظر اليهما نظرة متسائلة متجاهلا ما يحملان. بادر الشيخ قائلا:

- جئنا لندفن هذين الطفلين...

رفع يده بإشارة المنع:

-حجي... والله ممنوع. لم يعد يُسمح بالدفن هنا. هذه الأرض، من بستان جدوع الى الجسر الجديد.

عندها تكلم الشاب بغضب قائلا:

- وهل سيلغون المقبرة ويساوونها بالأرض؟

- لا أدري. أنا مجرد حارس هنا. سمعت أنهم قد يعيدون بناء المكان ويوسعونه.

ثم أطرق متفكرا وقال:

- اسمعا... يوجد خلف السدة، مقابلنا مباشرة، قرب الشط، مكان يدفن الناس الآن فيه الأطفال المتوفين. يمكنكما الوصول اليه مشيا خلال دقائق.

نظر الشاب الى الشيخ متسائلا ما العمل وعلامات الاستياء لا تزال بادية على وجهه. بادله الشيخ نظرة لا تقل استياء ولكن ارتسم على شفتيه ظل ابتسامة عكرة تعبر عن برمه بما لاقى خلال هذين اليومين من خيبات، ولا يزال عليهما أن يقطعا مسافة ويحفرا قبرا وربما غابت الشمس قبل أن ينجزا ما عليهما إنجازه.

التفت الشيخ الى الحارس محاولا أن يلفظ كلماته بما يمكنه من لطف:

- هل لديك مجرفة تعيرنا إياها وسنعيدها لك.

- توجد مجرفة قديمة.

وذهب الى ركن خلف المرقد ثم عاد بمجرفة.

- هذه هي... لا بأس بها فالأرض هناك هشة، ويمكنكما تركها هناك لمن يحتاجها.

تناولها الشاب من بين قضبان البوابة، وعندما أرادا الانصراف قال لهما:

- خذا حذركما. يوجد قتلة يجوبون هذه الأنحاء. لقد قتلوا رجلا صادفوه يسير على السدة هذا الصباح. إنهم يظهرون فجأة ويختفون عندما يرون شرطة أو جيشا.

اتخذا طريقهما الى السدة وهما يديران البصر فيما حولهما بين الحين والآخر. لكي يصلا بأسرع وقت الى حيث أشار لم يتبعا طريق السيارات بل سلكا بين الأشواك والأعشاب طريقهما فكان التراب الناعم المتحلق حول ثقوب النمل دائب الحركة تحت شمس الشتاء الدافئة المائلة الى الغرب يعلق بأطراف أصابعهما أو يندس بين نعليهما وأقدامهما. جال الشيخ ببصره حوله، نحو هياكل البيوت القليلة المتناثرة على جانبي الشارع المفروش بمزيج الرمل والحصى، ونحو السدة، والأشجار البعيدة على جانبيها، وقع بصره على شجرة ضخمة تمد أغصانها الغليظة حتى لتكاد تصنع سقفا أخضر فوق السدة. مد بصره الى أبعد من السقف الأخضر فرأى سيارة سوداء أو قاتمة اللون تتحرك ببطء في الأرض المحاذية لسلسلة أشجار صفصاف على حافة نهر. توقف بغتة وأمسك الشاب من ردنه وقال له:

- اعطني الطفل والمجرفة وعد أنت الى البيت!

فوجئ زوج ابنته بهذا الطلب، ومع أنه ناول الشيخ الطفل والمجرفة، ظل يحدج الشيخ بنظرة استغراب واستفهام أجاب عليهما هذا بقوله:

- عد! ربما تكون زوجتك بحاجة اليك الآن. يمكنني أن أقوم بالباقي وحدي ولن أتأخر.

حاول الشاب أن يجادله ولكنه ما أن فتح فمه حتى عاجله الشيخ

بنظرة غاضبة ناهية. استدار الشاب بعد تردد وتوجه الى الشارع. ظل الشيخ وهو يضم الطفلين بذراعيه الى صدره ويمسك المجرفة من خشبتها بيده اليمنى يراقب الشاب الذي التفت وألقى نظرة سريعة نحو الشيخ قبل أن تحجبه الهياكل عن النظر وهو يتوجه الى الشارع المعبد. نظر الشيخ الى الطفلين، أحس بنعومة وجه أحدهما على صدره المكشوف، رأى الكفن وقد انكشف عن رأس التوأم الأكبر قليلا من جهة صدره، والحاجب الكث والأنف الأفطس قليلا والفم الصغير وقد التصقت بصدره بوداعة أزلية. زم شفتيه بشفقة يائسة وتقدم صوب السدة بخطوات مندفعة. انكشف الكفنان عن رأسي الطفلين إثناء سيره الغاضب ولكنه لم يعرهما اهتماما، وشيئا فشيئا، مع إيقاع سيره مال الرأسان ليكونا بمواجهة السماء بتلك السحنتين الغضتين اللتين أفرغهما الموت من كل تعبير، والعيون المغمضة كأنها لم تنفتح أبدا، كأن القدر لم يدخر لها إلا بياضه السديمي.

فكر أن أمام زوج ابنته الكثير ليعيشه أما هو فقد رأى الكثير، أكثر مما كان يتوقع، لا بل يراه الآن أكثر مما كان يريد أو يتحمل، وابنته أمامها مستقبل تلد فيه المزيد من الأطفال، قد يموت بعضهم كهذين ويعيش البعض الآخر، ليبلغ مثله سن الملل من الألم، ولكنهم سيولدون على كل حال. أما هو فذاهب ليحفر في أرض مليئة بقبور البلابل البرية، بين أشجار الصفصاف، قبور الأطفال الذين أفلتوا

من العذاب، سيحفر قبرا عميقا، أعمق مما كانت تتمنى إبنته، حتى ولو ظل طوال الليل يحفر، قبر لن يستطيع الغرير، أو الكلب، أو أي حيوان نبشه، سيضع الطفلين جنبا الى جنب، متقابلين، وجها لوجه، كأمنيات أبويهما، كأمنيتين لم يرف لهما جنح إلا ليهمد. تلك الكتلة القاتمة البعيدة التي لاحظ قبل قليل وجودها والتي بدأت تتحرك الآن لتستوي على السدة باتجاهه ربما كانت هي التي يستقلها المجرمون، ولكنه لن يتراجع.

٢٠١٥

قطرات الغبش

أطل بلال برأسه على الفِناء مرهفا السمع. أحس بالهواء المعتم المتخم بالأنفاس وروائح البيت الرطبة، يتصاعد، يلفح أنفاسه دفقات، ويحيط برأسه كثيف الشعر، أشعثه، وينفلت في الفضاء مع كل نسمة. أصغى جيدا... لا شيء، لا صوت ينم عن أحد مستيقظ. لا بد له، إذا أراد النزول والذهاب الى الغرفة المجاورة التي تنام فيها شقيقاته الثلاث وشقيقه الأصغر جميعا في فراش واحد على الأرض، من أن ينزل الدرج بمحاذاة غرفة والديه ويمر من أمام شباكها. ركز السمع وجميع حواسه من جديد ليلتقط أدنى نأمة فلعل أباه يجلس منزويا في مكان ما يدخن وينتظر عودته ليعاقبه على شرود ذهنه حين أراد ركن سيارته الفورد فطلب منه الانتباه لئلا ترتطم السيارة بالحائط، لكن بلالا لم يستطع أن يؤشر له في الوقت المناسب أن يبطئ فانخدشت الواقية، ونزل أبوه من السيارة يدمدم باللعنات وبيده هراوته التي لا تفارقه ويضعها دائما في متناوله خلف

مقعده، فما كان من بلال إلا أن يهرب باتجاه المتنزه ويقضي في ظلمته شطرا من الليل، وعاد ليتسلق جدار البيت من على السيارة وينسل بخفة من سطح المطبخ الى سطح الغرف. نعم سيعاقبه ولن يؤجل العقاب الى غد، حتى ولو أيقظت الجيران صيحات الألم التي سيطلقها مع كل ضربة.

لم يلحظ شيئا مريبا ولكنه سمع تأوهات جدته الواهنةَ، تأتيه من مكان ما، مرة يخيل اليه أنها تأتيه من إحدى الغرف ومرة من زاوية من زوايا الفناء، ربما من المطبخ أو.... لا يدري. لو كانت جدته بصحة جيدة لوجد عندها ملاذه الذي يتحصن به دائما ولن يستطيع أبوه أن يقترب منه وإلا نالت منه جدته بعكازها أو خدشت وجهه بأظافرها وهي تسبه وتلعنه، وغالبا ما يتراجع ما أن يصبح بلال خلفها مبتسما ابتسامة الخاسر وهي تسلقه بلسانها الحاد. لو لم تكن مريضة لما احتاج أن يهرب الى المتنزه.

انسحب من إطلالته بهدوء واستدار وأسند ظهره بارتخاء الى جدار السطح. تلفت ببطء وقد أثقل النعاس جفونه فلم ير موضعا مناسبا يقضي فيه ما تبقى من تلك الليلة الأرقة سوى التخت الخشبي، نهض نحوه وأزاح البساط المصنوع من فتائل الأقمشة القديمة كابية الألوان، وإندس تحته على ألواح التخت. بدا له القمر، أشد لمعانا من كل يوم، وكان كأن الغيوم المتفرقة التي تمر به فتحجبه عن النظر أو تبهت لونه تجعله يدور بلطف، لطف مناسب لعيني

بلال المثقلتين نعاسا. راح في النوم ومزيج رائحة دفلى المتنزه وعشبه الربيعي لا يزال ينبض من قميصه نبضات أثيرية، وقبل أن يغط في ذكرى ممر اليوكالبتوس مكلكل الأغصان خلف الجامع القريب من بيت أهله مد يده الى جيب البيجاما ليتحسس زهرة دفلى بيضاء.

كانت جدته، هذه المرة، في تهويمات النعاس، تطلع من ماض ليس بعيدا، تسير بهمة وهي تحمل على رأسها صرة كبيرة من القماش فيها أشياء «صوغة» اشترتها لإحدى خالاته في ريف صدر اليوسفية، وكان هو يتبعها مرتديا دشداشة جديدة مقلمة بالأزرق وحذاء من الجوت المزين بصور الدراجات والأرانب، وفي جيبه «خرجية»، قطع نقدية، لن يستطيع صرفها في ذلك المكان إذ لا وجود لسوق ولكن جدته أعطتها له ليبهر بها صبيان «العُرْبان». يجتهد في محاولة مجاراتها والبقاء قريبا منها خوف الكلاب التي ستتلقاهما عندما يصلان بالنباح والدوران حولهما. سار خلفها مباشرة مطمئنا الى حمايتها، كما في كل حين، وهو يحاذر أن يدوس على زهور برية بالغة الصغر طالعة على جوانب الميسم الترابي المحاذي للنهر ويبقى على التراب الناعم يدوس حتى ولو غطت حذاءه طبقة من غباره. التفت خلفه فرأى الطريق العام المعبد الذي تسير عليه السيارات مسرعة يصبح أبعد فأبعد وأصوات محركاتها تخفت وتخفت....

❖ ❖ ❖ ❖

بين الحين والآخر كانت تسقط على وجه بلال من القطر قطرات، باردة، لطيفة الوخز، ودون أن يفتح عينيه يمسح صفحة خده بظاهر كفه الهزيلة بحركة سريعة برمة، فقد كانت القطرات في نومه القلق كريات هلامية للزوجتها وخز مناكد. مست أنفه رائحة كرائحة شحم التزييت، وصوت خشن، مع القطرات يتناوب على خده الذي اختلطت عليه ملوحة العرق ببرودة القطر. وضع كفه الأيمن على خده الأيسر موجها راحته نحو السماء تتلقى النثيث وتتحرك الأصابع كأصابع عازف يعزف على النسيم المضمخ ببقايا بلل الشتاء وبشائر الموسم الأخضر. أراد أن ينادي على أترابه خلف سياج الآس، ولكنه بدلا من أن يسمع صوته سمع الصوت الخشن يقترب منه بإلحاح. سمع من خلف حاجز «بلال! بلال!»، وبعد هنيهة شعر بيد تمسك كتفه مسكة مألوفة وتهزه يرافقها الصوت الخشن يندهه برفق غريب، فأجفل مستيقظا.

أبعد يده عن وجهه والتفت ناحية الصوت، نحو الأعلى، يسارا، الى حيث يغادر القمر فتحة في الغيوم، وحيث رأس أبيه غائم الملامح تعلوه شعيرات تلتمع بالضوء والبياض حول صلعة بيضوية. تسمر في مكانه مستسلما، متوقعا أن يهبط كف أبيه على رأسه بضربة أولى، لكنه بدلا من ذلك سمع أباه يقول له بلطف:

- بني بلال.... تعال معي!

نهض يتمايل فأمسكه أبوه من كتفيه يسنده:

- إحذر أن تسقط عند نزولك الدرج... هل صحوت جيدا؟

حاول أن يجيب بالإيجاب ولكنه لم ينجح سوى في لفظ همهمة محشرجة، فقد أرعبه لطف أبيه غير المتوقع تلك الليلة ما زاد من ثقل لسانه وصعوبة التكلم التي يعاني منها منذ أن نطق بأولى الكلمات. سار خلفه يجر رجليه جرا وقد تناهبته الهواجس.. هل يستدرجه أبوه الى الأسفل ليضربه هناك؟ شيء ما في الجو حوله، وشيء ما في نبرة أبيه ومشيته وهو ينزل الدرج يشي بأن أمرا حدث، حتى أن أباه لم يحرص، كما يفترض، على الإمساك بيده لكي لا يحاول الإفلات، بل بالعكس سار أمامه وئيدا، درجة درجة، كأنه يدله على مواضع قدميه في الجزء الأعلى المعتم من الدرج قبل أن يستديرا في نزولهما ليواجها ضوء مصباح الفناء. صار بمحاذاة الشباك، ألقى نظرة من خلال المشبك فرأى أمه جالسة أرضا تبكي بصوت خافت، بكاء هو أقرب الى تنويمة حزينة دون كلمات. لماذا تبكي؟ نظر الى أبيه الذي لم يستدر ليدخل الغرفة كما توقع بل استدار الى الجهة المقابلة.. الى الحمام. التفت بلال الى حيث توجه أبوه وجمد في مكانه لما رأى.

على ضوء المصباح الذي يصطبغ كل شيء في الحمام باصفراره رآها... ممددة على جنبها الأيسر بمواجهة الباب الخشبي الضيق المنخفض. لم يكن بلال يرى، من حيث يقف خلف أبيه، سوى نصف جسدها الصغير الهزيل. كانت ممددة في مواجهة الباب على أرضية

الحمام الإسمنية المرتفعة قليلا وخلفها سماور الحمام الكبير، كما كان يراها كلما نامت للقيلولة في ظل الفناء، بفمها الأدرد المفتوح قليلا، وعينيها نصف المغمضتين، ولكن يدها التي تضعها عادة تحت رأسها كانت هذه المرة بعيدة عنه، مفتوحة وقطرات الماء التي تسقط من الصنبور، متباعدة، بطيئة، لا تكاد تبين إلا من رذاذ نثارها الذي يسقط بعضه في راحتها المتغضنة الشاحبة وعلى شعر رأسها المنتثر الأبيض المحمر قليلا في بعض المواضع من أثر صبغة الحناء. أصبح الى جوار أبيه وصار يراها كلها. لم يقل له أبوه أن جدته ماتت ولكنه عرف ما أن نظر اليها، فهم أن جدته فارقته الى الأبد. فهم أن هذا الفم الذي جمده الموت لن يبتسم له ثانية أو يحدو له حداء البادية الذي لا يفهم منه كلمة ولكنه يستمتع بسماعه ترتله جدته وعيناها ساهمتان تنظران الى الماضي، الى أيام صباها وشبابها. تصمت هنيهة وتنظر اليه مبتسمة وتسأله: «تريد بعد؟» فيهز رأسه بالإيجاب متحمسا وهو يلملم نفسه أمامها ويتحفز في جلسته مقتربا، فمها الذي تعلوه من الجانبين آثار وشم قديم وتحته في منتصف الحنك نقطة وشم وحيدة لن يقص عليه حكايات أجداده مع الضواري والسعالى والجن بعد، وأن عينيها التي زحف عليها الماء الأسود في الأشهر الأخيرة لن تراقبا أطفال البيت يلعبون وهي لم تك ترى منهم في الحقيقة إلا أشباحا فتضحك لضحكهم وترفع صوتها بالتوبيخ إذا سمعت أخاه الأصغر يبكي « من هذا الذي

ضربه؟ بلال أم عديلة؟ اللعنة على من ضربه....»، ويدها التي طالما تحسست وجهه أو مسحت دمعه أو فكت من فوطتها عقدة لتخرج منها آنة تعطيها له فينطلق بها الى دكان أبي زعيلة، هذه اليد لن تكون حاضرة لتسحبه الى حضن دافيء.

شعر بيد أبيه تستقر على كتفه وصوته الحذر كأنه يخشى أن يسمعه أحد يقول له:

- إذهب الى أمك لتبدل لك ثيابك... هيا!

توجه هو نحو النشيج الواهن المنغم ودخل أبوه الى الحمام ليحمل جدته. وجد أمه قد هيأت له قميصه الأبيض وبنطاله الأزرق السمائي ذا الحمالات اللذين يرتديهما للمدرسة. نزعت عنه بيجامته المتسخة وهي توصيه أن يكون شجاعا ولا يخاف. التفت الى أبيه وهو يدخل حاملا جدته ويضعها على مَدَّة من الصوف ويوسدها وسادة من القديفة. لم يذهب بها الى الغرفة الأخرى حيث تنام عادة هناك على فراشها، عندئذ انتبه بلال الى أنه لم يسمع صوتا من الغرفة الثانية حيث تنام شقيقاته وشقيقه، ورجح أنهم نائمون ولا يدرون بما يحدث. كانت أمه تنظر الى جدته بعيون مغرورقة بالدمع وكل تعابيرها توحي بسؤال ملتاع واحد: «أهذه هي النهاية؟». رغم ألمه الأخرس لم يكن يرغب في الارتماء عليها والانخراط في البكاء، لم يكن يشعر برغبة في البكاء، كل ما كان يرغب فيه أن يُترك ليعود الى المتنزه ليندس في ظلمته فلا يعود يرى

الذي يراه أو يسمع الذي يسمعه.

فجأة تكلمت أمه مخاطبة أباه بلهجة مريرة الإستياء وإن كان صوتها بقي منخفضا واهنا:

- قلت لك إذهب لتتفقدها.... لماذا لم تفعل؟

التفت أبوه نحوها وقد اكتست ملامحه بتعابير لم يشهدها من قبل، لم يسبق له أن رأى أباه بمثل هذا الإنكسار، وهذا الأسف:

- وما أدراني أنها ستموت... أنت تعرفين تصرفات أمك. لقد أغلقت باب الحمام خلفها... لماذا لم تذهبي أنت؟ لقد ذهبت أنا حين تأخرت كثيرا...

وصمت مقطبا وهو يضغط بشفته السفلى على شاربيه. قال بلهجة آمرة:

- هذا الكلام لم يعد مجديا... أكملي ودعينا نتوكل على الله.

مسحت عينيها بردن ثوبها وزررت قميص بلال ثم أمسكته من زنده وقادته الى صنبور المياه عند الحوض قرب الباب الخارجي. غسلت وجهه وجففته بمنديل، وبينما كانت تمسح وجهه حانت منه نظرة فرأى شقيقاته من خلال الباب المفتوح كلهن جالسات جنبا الى جنب في فراشهن، واجمات وقد غطين أرجلهن بالبطانية. كن كالتماثيل الجامدة لا تبدر منهن حركة بل يراقبن بعيونهن فقط، أما شقيقه الصغير ذو السنتين فقد كان يغط في نوم عميق.

❖ ❖ ❖ ❖

الماسحات تزيح يمينا ويسارا قطرات المطر التي تبدو كأنها تنبثق فجأة من الزجاج الأمامي ذاته، والسيارة الفورد ذات المقاعد العشرة تقطع بهديرها طريقها من مجمع البيوت الى الشارع العام. الماسحات، بحركتها الإيقاعية، تزيح جانبا الصورة المترجرجة للنخيل وأشجار اليوكالبتوس لتحل محلها للحظة فقط صورة النخيل واليوكالبتوس على خلفية الغبش الأزرق ثم تثقّبها القطرات مرة أخرى. يجلس بلال في المقعد الأمامي الوحيد الذي يفصل غطاء المحرك بينه وبين مقعد السائق حيث يجلس أبوه واجما. يميل جانبا وهو يتحسس بجسده الدفء الذي بدأ يسري في الغطاء الحديدي، ويغمض عينيه تارة رغبة في النوم وتارة يفتحهما عارفا باستحالة أن ينام على هذه الحال. يستشعر خدر الجسد المحروم من الراحة، ينتبه الى صعود السيارة الى الشارع العام وكأنها تريد أن تنقلب الى الخلف ثم تعتدل وتستدير، ينظر الى الأشجار التي تحف بالطريق المعبد من الجانبين وهي تقطر وتتلألأ على ضوء مصابيح السيارة، من خلال زجاج الباب يرقب الأشكال الخضراء القاتمة تزداد سرعة وهي تنقذف مارقة ومعها أضواء دور على مبعدة تتابع، أسند صدغه الى الزجاج فسرت برودته الى جبهته، وأخذ يضرب وجهه تيار هواء لطيف. لم يكن يريد التفكير بشيء، حتى بموت جدته، كل ما كان يريده أن يسمح له أبوه بأن ينزل من السيارة ويسير على غير هدى أو غاية يبتغيها سوى أن يفضي به المسير الى برية كالتي كانت

جدته تقوده اليها حين تذهب به الى أقرباء لها، برية خالية حتى من الأشجار، وبين الحين والآخر يصادف سحلية يتوقف ليراقبها تنساب بين الأحجار والحشائش أو يعبر مساحة يكثر فيها الحصى فيقرفص ليجمع حصيات ملونة أو ذات أشكال مميزة، وجدته واقفة على مبعدة تنتظره ثم تحثه على الإسراع. لكنه هذه المرة لا يرغب بجمع الحصى ولا أن يدلي بقدميه في ماء النهر الواسع فيحركهما يمنة ويسرة ويرفعهما ثم يغمرهما هكذا الى أن ينفد صبر جدته فيعبر نحوها راكضا قنطرة جذوع النخيل. لا... لا يريد سوى أن يتوجه نحو أفق تلك البرية البعيد المرتفع الذي طالما تساءل ما الذي يوجد بعده... أفق لا يرتسم عليه شيء، مجرد خط قليل الإنحناءات، وبعده الفضاء. لكن ذلك الفراغ الأزرق المليء بالأسرار بالنسبة الى عقله الغض هو ما كان يتأمله تواقا الى فضه والنفاذ الى عالم آخر غير الذي هو فيه، عالم لا يمكنه أن يتخيل ما يمكن أن ينطوي عليه، غير أن كل احتمال كان من قبل مثيرا يملأ قلبه بالرهبة هو الآن، بعد موت جدته، مطمئن، مرحب، ينطوي على خلاص مجهول.

يفز على صوت أبيه يقول:

- كما قلت لك... تنتظر سيارة ركاب آتية من ديالى تمر من مفرق تل محمد فتركب الى الباب الشرقي ثم الى علاوي الحلة. هل تذكر الحاج بداي؟ الرجل الذي يسألك حزورات دائما ويمازحك

كلما إصطحبتك معي اليه. ستجده قد فتح محله للتو. سلم لي عليه وأخبره بوفاة جدتك وسيأخذك بسيارته الى أخوالك في اليوسفية ليأتوا الينا....

يسكت كأنه يمنحه الفرصة لإستيعاب كل هذه التفاصيل:

- قل شيئا... قل فهمت.

يتأتئ بلال بأحرف ويهز رأسه بالإيجاب.

يضغط أبوه على طاقيته البيضاء جيدا ليثبتها على رأسه..

-أما أنا فسأذهب نحو خان بني سعد لأخبر أعمامك... لن أتأخر.... لا بد من أن يكونوا حاضرين قبل أن نقوم بأي شيء....

يلتفت اليه ويتأمل هندامه ثم يمد يده ليعدل له ياقته...

- النقود التي معك كافية وزيادة...

ويربت بيده على جيب بلال ليتأكد من أنه وضعها في جيبه عندما أعطاها له في البيت قبل أن يذهب ليرتدي بنطاله وقميصه ويعتمر طاقيته التي لا تفارقه سواء لبس الدشداشة أو لبس البنطال والقميص.

لم يعد لدى الأب ما يتحدث به ويرين صمت داخل السيارة، صمت يطرزه هدير المحرك الذي يأتيه عبر الغطاء مع نفثات من الهواء الحار عبر فتحة ما.

❖ ❖ ❖ ❖

ينزل من الفورد في مفرق تل محمد بعد أن يكرر عليه أبوه قوله المشجع:

- أعتمد عليك....عفيه إبني السبع!

ويسير بالسيارة مبتعدا باتجاه تل محمد.

لا تزال بقايا من عتمة تخالط ضوء عمود الكهرباء الشاحب في وسط المفرق، والذي يقف الى الجهة الأخرى منه على طريق الكرادة حارسان ليليان يرتديان معطفين مطريين طويلين يغطيان كامل جسميهما تقريبا وهما يعلقان على كتفيهما في وضع مقلوب بندقيتين طويلتي الماسورة. يبدوان وكأنهما ينظران اليه من بعيد عندما ينزل من السيارة ويراقبانه يقترب من العمود ويصعد الرصيف، عند تقاطع الطرق، ليحتمي بشجرة السدر من النثيث المتواصل. يصرفان النظر عنه ويمشيان مبتعدين. يجلس هو على قطعة من الإسمنت موضوعة عند جذع الشجرة ويتلفت حوله... لا شيء يتحرك، لا أحد يبين غير الحارسين السائرين مبتعدين باتجاه الكرادة، أصوات محركات سيارات بعيدة لا يراها بدأت تتناهى اليه. في تلك اللحظة يلمح على مبعدة شيئا يتحرك عند شجيرة في جزرة وسطية، يخرج الشيء وتتضح هيأته فيتبين أنه كلب، يتبعه ثان، وثالث. تصبح الكلاب الثلاثة وسط الشارع، تدور حول بعضها البعض قليلا، وتتبادل القفزات، والضربات العابثة بقوائمها الأمامية، ثم تتوقف فجأة لتلتفت وتنظر الى حيث يجلس

بلال، تثبت في مكانها وترفع رؤوسها باهتمام، يقطع أحدها هذا الجمود ويتحرك باتجاه بلال، يمشي الهوينى مقتربا، يتبعه الكلبان الآخران. يعصره الخوف، ودون أن يتحرك من مجلسه، أو يحول نظره عن الكلب، يمد يده متحسسا الأرض باحثا عن حجر فلا يجد فوق الرصيف من حوله سوى أوراق الشجرة المبللة. لا يبتعد أو ينهض خشية أن يحفز الكلاب للإسراع نحوه والهجوم عليه. ينظر الى الحارسين اللذين أصبحا بعيدين، يحاول أن يفتح فمه ويصيح ولكنه لا يفلح سوى في إسماع نفسه كلمة «كلاب»!

٢٠١٦

الضبع

كل ما يستطيع قوله هو أن نظرته اليه كانت نظرة استخفاف.. استخفاف حيواني خالص، استخفاف يمتد نحوه عبر الأمتار القليلة مع برد الفجر من وقفته، المتفرسة، الجانبية، الكالحة، الصنمية. فهمه... تفاهما، وكل في عالمه المتوحد، بتلك النظرة المخيفة التي كان يوجهها اليه، بسماجة الغريزة وثبات الوحشية. كان ضبعا فعلا.. حيوان بحجم الجحش الداكن، بحجم كابوس مفترس أفلت من نومه المؤرق الى يقظته حين فزّ منتبها، مجفلا على نباح الجروين المذعور، وعلى اندفاع أحدهما هاربا من الضبع ليدخل تحت سريره المكون من باب عربة قطار صدئ وضعه فوق أربعة جلاميد صخر وجعل تحته ليلتئذ بنادق رفاقه الكلاشنكوف الثلاث فيما أبقى بندقيته لصقه في الفراش. تبين له فيما بعد أن الجرو الأخرق اللعين قد تغوط من شدة خوفه على البنادق. بقي الجرو الثاني، الأكبر، في منتصف المسافة بينهما ينبح على الضبع بإصرار

الجرو الغر. أنبأ تردّدُه الضبعَ بما يكفي ليعرف أن لحظة الضغط على الزناد لن تحل.. مادام هو، الضبع، على بعده، في مكانه أو أبعد. عندما فز، ودون تفكير، حتى قبل أن يفتح عينيه، سحب أقسام البندقية وسددها فاتحا عينيه في اللحظة ذاتها باتجاه صوت النباح المستغيث. لام نفسه على غلطة كان يمكن أن تتسبب في هلاكه بين فكي الضبع. كان يعرف أن أخطر الأوقات هو الفجر في كل مكان عاش فيه.. وقت الزوار غير المرغوب فيهم، وهنا.. الحيوان الضاري واللص، كلاهما، يختار هذا الوقت للتسلل، عندما يبدأ الهواء اللطيف البارد يداعب العيون بعد سهر الليل الصيفي القائض. فتح عينيه على سعتهما كأنه ينخلع الى الصحو انخلاعا مؤلما بعد غفوة لذيذة. هناك رآه.. واقفا وقفته المهيبة يخبره بأنه اليقظة التي لا يعرف كم هي أقرب الى موته وأنه، الضبع، هو المتحكم فيها، يخبره أن أربع بنادق لا تغير من أمره شيئا إن لم يكن يحسن استخدام الواحدة التي بين يديه. مرت لحظات التحدي بطيئة، وعتمة الليل المتأخرة تزيد بغلالتها من توتره وهواجسه. نظر بطرف عينه، دون أن يدير رأسه، يمينا ويسارا، ليتأكد من أنه يواجه ضبعا واحدا. استنفر حواسه كلها ليستشف أيضا أن المرتفع الذي خلفه والذي يرتقي الى جسر سكة القطار الذي تقع نقطة حراسته تحته لا يمكن أن ينهد عليه بضبع ثان. الحقيقة أنه لم يتوقع أن يواجه ضبعا. كان يتوقع لصا من أهل القرية القريبة ربما يكون قد لاحظ أنه وحده

فيباغته في هذه الساعة طمعا في البنادق التي دسها هو تحت سريره الصلب زيادة في التحوط والأمان. راقبه.. واقفا هناك.. بين خزان الماء وعربة القطار العتيقة التي كانت غرفة للحرس قبل بناء غرفة من الحجر. استفزه استخفافه البارد، وتكشيرته الصامتة، وعيونه ذات النظرة المتعالية من رأس مرفوع قليلا داخل هالة داكنة من شعر رقبته المنفوش. كانت بيوت القرويين في الجهة الأخرى من الوادي، تمتد من الطرف الآخر للجسر مع المنحدر الى الشارع المحاذي لنهر الفرات، ولو أطلق عليه النار قد تذهب رصاصة لتستقر في جسد انسان ينام على سطح من السطوح غير المسيجة فتحدث الكارثة، وربما، انطلق نحوه الرصاص من عشرات الفوهات. حذر معقول، أو هكذا أقنع نفسه. في هذه الإثناء كان الضبع ينتظر... خطر في باله أيضا أنه إذا أفلح في قتل الضبع قبل أن ينقض عليه ويمزقه فإن لعلعة الرصاص نفسها ستكون بداية كابوس آخر، حين تدخل نقاط حراسة الجسور كلها حالة الإنذار على خط السكة المار بقرية البغدادي. سيكون عليه أن يفسر لآمر القاطع لماذا هو وحده وأين ذهب الحراس الذين معه. لن يفهم الآمر ولن يستطيع هو أن يقول له أن الحراس الذين معه لم يكونوا يحرسون بقدر ما كانوا يعبثون... وباستخفاف الضباع. لم يكونوا أكثر من طقطقات مسابح، وأكثر ما كانوا يفعلونه هو التمدد على فراش في الظل أو التمشي عصرا على هذه الأرض الكركمية ذات العرابيد والعقارب نحو المضيق الذي

يوصل الى أوجار الضباع وأبناء آوى البعيدة. كان مسرورا لصرفهم الواحد بعد الآخر الى بيوتهم، وهما شرطيان سابقان في سجن أبي غريب وفتى لم يبلغ عمر التجنيد، على أن يعودوا في اليوم التالي.. في يوم الضبع هذا. رأى في إبعادهم خلاصا لمدة يوم يبعدهم فيه عنه، وخلاصا ليوم آخر يبتعد فيه هو عنهم لينصرف الى أهله في بغداد. قضى يوم انصرافهم في تذوق (أشهر قصائد الغزل في الشعر العربي) دون أن يفسد عليه متعته طقطقات المسابح و الضحكات الغبية، وقضاه في تأمل ما بدا له جمالا نادرا في تلك الأنحاء، الشريط القصير الرائع الذي يبدو من بين جانبي منحدر الوادي عند نهر الفرات حيث الطريق المعبد والمقاهي المنتشرة بين أشجار الشاطئ، جمال سياحي مستعار من لبنان كأنه بطاقة معايدة، راقب فتيات القرية يحتطبن هنا وهناك، وقد يقتربن منه فيمعن في تأمل جمالهن أشهب الشقرة وعيونهن صافية الزرقة أو الخضرة، ويعجب للتنافر بين بياض بشرتهن وسمرة بشرة الرجال وبين رقة ملامحهن والخشونة في ملامح رجال هذه القرية.

لكن الضبع ينتظر الآن.. وسرعان ما سيدرك أن لحظة ضغطه على الزناد لن تأتي فيشرع هو بلحظته، ولكم تمنى أن يندفع الضبع نحوه فيقطع دورة التردد ويضغط على الزناد. انتبه الى أن الكلاب عند البيوت قد ثارت أيضا نابحة نباحا متصلا وقد شمت، دون شك، رائحة ضبع قريب في الأنحاء وسمعت عويل الجروين ولكنها لا

تجرؤ مع العتمة أن تترك جوار البيوت، وكذلك انتبه الضبع، وخيّر نفسه، وهو مطمئن، كما يبدو، الى أن الرجل لن يطلق الرصاص عليه مادام يحافظ على بعده، فتحرك لكن اتجاه حركته لم يكن متوقعا إذ انسحب متجها نحو النهر وليس نحو المغاور البعيدة. نزل الدرب الذي تسلكه سيارة الأرزاق وسيارة الخبراء الأجانب المشرفين على أعمال السكة. توقف بعد مسافة واستدار لينظر الى الرجل الذي تتبعه بفوهة بندقيته، ليلقي نحوه تذكيرا أخيرا بتعاليه واستخفافه ثم تابع طريقه وغاب في المنحدر. رآه لآخر مرة عندما وصل الى الطريق العام الموصل الى بغداد وسلك المنحنى نحو ضفة النهر في ضوء الصباح الباكر.

يتذكر الرجل بعد مرور ربع قرن ذلك الاستخفاف، ذلك التعالي الحيواني الذي كان يستمد من الفجر المعتم، ومن عزلته، برودته الصاعقة التي كانت تستحق رصاصة تدوي وتبدد الصمت.. يتذكر أن الأصبع كان في مكانه المناسب على الزناد.

٢٠٠٧

حلم عشوائي

الى روح الكاتب التركي العظيم عزيز نسين

في ذلك المعسكر الصغير المهجور، وعلى أنقاض القاعات التي هدمتها مجاميع من الناس أتت من حيث لايعلم أحد وباعت حديدها وطابوقها ثم مضت الى حيث لايعلم أحد، بنيت عشرات البيوت الشوهاء فبدت مثل رقع مختلفة المساحات، متراصة على شكل صفوف متعرجة، من خلفها ويمينها أرض واسعة تفصلها عن المدينة إمتلأت بأكوام أنقاض البناء والإسفلت والقير، والى يسارها غير بعيدة تلال مكب النفايات، ثم أرض إمتلأت بالأنقاض ذاتها تصعد نحو الأفق وتخفي عن النظر الجانب الآخر من المدينة. هناك جلس رجلان وقد أعطيا ظهريهما الى الحي الرمادي المبقع بألوان متنافرة، ينظران عبر الشارع المعبد الى خط من النخيل تمتد خلفه مزارع شاسعة نحو دجلة. أحدهما يرتدي سترة وبنطالا

عتيقين ويعتمر طاقية وسخة تخفي صلعة تعتلي رأسا صغيرا لا يتناسب وضخامة جسمه، والآخر يرتدي دشداشة وقمصلة جلدية ويعتمر كوفية حائلة اللون، وكلاهما ينتعل نعالا من الجلد يكاد لايبين للناظر عن بعد، ولايميز لونه عن لون بشرة قدميهما.

كانا يتبادلان حديثا متسكعا بصوتين خفيضين، ولم يكن يبدو عليهما أنهما ينتظران أحدا أو شيئا، ولكنهما حين شاهدا الحافلة الصغيرة تتوقف وينزل منها الرجل العجوز بدشداشته الأنيقة ذات اللون السنبلي الداكن الذي يبعث إلتماعات على إيقاع حركات جسمه المعتدل برغم الشيخوخة، حاملا شتلتين، شتلة سدر وشتلة يوكالبتوس، نظرا إليه بفضول وإهتمام غير ودي، سلم عليهما مبتسما وأضاف:

- كيف حال الرَبْع؟

لم تخف عليهما السخرية التي إنطوى عليها السؤال. ردا على سلامه ببرود ولم يجيبا على سؤاله. راقباه وهو يتجه الى أول بيت ويفتح بوابته ويدخل. كان هذا البيت سابقا دائرة إستعلامات المعسكر وهو الأوسع في الحي، فيه حديقة ومسيج من الواجهة بالآجر ومن جهاته الأخرى بقطع من الصفيح المضلع المرقش بالصدأ. عادا الى النظر أمامهما. قذف ذو الكوفية عقب سيجارته بضربة من سبابته فراح العقب يتقلب في الهواء حتى إستقر على قير الشارع. نفث بقايا الدخان وقال:

- لايبدو عليه أنه ينوي أن يموت.

- لقد نكث عهده.

- وهاهو يغرس خلال شهر حوالي عشرين شتلة.

- نعم.. والحديقة أصلا كانت مزروعة بالثيل وبعض الأشجار. أحسن الهرم الإختيار. نزل في إستعلامات المعسكر قبل أن تُهدم وسيج ما حولها سريعا.

صمتا وعادا يصوبان الى الأمام نظرات ساهمة. تناهت إليهما ضحكات طفولية فإلتفت ذو الطاقية الى مجموعة من الصبيان والبنات قد جمعوا قناني وأغراضا عتيقة محطمة داخل بناء غير مكتمل بنيت حيطانه بعلو متر وتُرك ليدل على أن أحدا وضع يده على قطعة الأرض فلا يقربها غيره. كان الصبيان والبنات يلعبون لعبة (بيت أبو بيوت) وقد صفوا حاجياتهم على الحيطان وفي الداخل. تذكر إبنه فدمدم:

- أين ذهب الأبله؟ لقد تأخر. كل يوم يعود من المزبلة قبل هذا الوقت وقد ملأ كيسين بالعلب وكسر النحاس.

كان محل التاجر الذي يتعامل معه صبيان ونساء الحي في الطرف الآخر من الحي على الشارع، محل كأنه بني على عجل من بقايا آجر القاعات وطابوقها، لايوجد فيه سوى الميزان وكوم من الأكياس المحشوة بالعلب المعدنية والنحاس لاتلبث أن تأتي سيارة شحن صغيرة تنقلها الى معامل في الحي الصناعي.

إلتفت الى صاحبه حين سمعه يقول:

- تصور كم سيكون حظ ساكن بيت هذا الهرم حسناً إذا صار التمليك... بيت واسع وركن وعلى شارع تجاري...

وأضاف موضحا بعد لحظة صمت وكأنه يرد على نظرة صاحبه المشككة الساخرة:

- ..... طبعا... إذا تمليك... يكون هذا الشارع تجاريا.

سأله ذو الطاقية بحنق:

- ألم تؤكد لي أنه ميت لا محالة وورطتنا هذه الورطة؟

- لا تثقب قلبي... والله كان مشرفا على الموت... لا أدري ما حدث. ربما عمّر نفسه بفلوسنا.

ضحك ذو الطاقية بوهن:

- ... إي..

أطلق ذو الكوفية آهة مديدة وقال:

- يعني صعبة عليهم أن يملكونا قطع أراض جوار هذه المزبلة أو في مكان آخر؟ إذا كان على الإستحقاق يمكنهم التأكد من دائرة العقاري ليعرفوا من يستحق ومن لايستحق، من هو مهجر مثلي ومن هو متضرر مثلك ومن هو المحتال. ماذا سيخسرون؟ الأرض موجودة. هل سيصنعونها أم يشترونها؟

- واصل حسابك! خليها سكتة!

- على رأيك.

بدا لذي الكوفية أن خيار صاحبه بالسكوت منطقي، ولكن رغبته في الحديث عن أمور طالما كررا الحديث فيها خلال جلسات العطالة التي داوما عليها منذ فترة عاودته من جديد وبإلحاح حين تناهى إليهما صوت المجرفة بين يدي الرجل العجوز تتوالى ضرباتها على الأرض، وإلتفت ليراه من خلال فرجة بين الحائط والصفيح وقد أتم غرس شتلة وراح يضرب التراب بالمجرفة ليساويه حول الشتلة. دنا من صاحبه قليلا وهما على جلستهما على الكتلة الإسفلتية التي كانت فيما مضى جزءاً من قوس بوابة المعسكر وقرب فمه من أذنه ليقول همسا:

– يوجد عدد من الذين يمتلكون بيوتا في مناطق أخرى يسكنون هنا في هذه القذارة.... شيئ عجيب... ماذا يفعلون هنا؟

– عمي ناس تعرف تشتغل. مثل الذي إشتريت منه البويت الذي أسكن فيه وعائلتي مقرفصين لضيقه. سيج مئتي متر، قسمها الى أربع، كلما بنى خمسين باعها لمضطر لينتقل الى الأخرى، وهكذا هو الآن يسكن الرابعة....

صمت وإلتفت نحو مكب النفايات، كان وهو يتحدث مشتت الذهن، مشغول البال بغياب ولده. لم يكن مرتاحا لترك إبنه يتجول ساعات في تلك الوهاد التي صنعتها أكوام الأزبال منذ أن بدأ أناس غرباء يأتون لتقليب النفايات وجمع اللقى الثمينة التي ربما إنطوت عليها كومة هنا وكومة هناك، فتيان غير مريحين تبدو عليهم

الوقاحة و... الفجور حتما. قرر أن يأخذه معه الى مسطر العمل كلما سنحت الفرصة ليتعلم مهنة خير له من التمرغ بالأوساخ. فليعد سالما فقط واللعنة على مكسب الزبالة الحقير...

سمعا من جديد صوت ضربات المجرفة حول الشتلة الثانية. إلتفتا معا نحو العجوز الذي كان لايزال ظاهرا لهما من بين الجدار والصفيح وإن أصبح أبعد قليلا. تمتم ذو الطاقية:

- لا يبدو عليه أنه سيموت قريبا.

- عجيبة يا أخي...

- لا عجيبة و لا هم يحزنون.. لقد كنا مغفلين. كيف عقلت أنت أن تكاتب رجلا على شراء داره وتسلمه المال ويكون موعد التسليم بعد وفاته؟

- لكنك كنت مقتنعا مثلي.

- نعم.... بشراء الدار وليس بشيئ آخر. المصيبة أني سلمتك المليون الذي جمعته بالكد أشهرا لتضمه الى مليونك وتعطيه له... لابد أننا كنا تحت تأثير سحر أو ما شابه.

- قال لي حين عدته أنه رجل مشرف على الموت وإذا ما مات فلا حاجة لعجوزه بالبيت، ستعود لتعيش مع إبنها والمبلغ سيعينها على متطلبات الحياة فلا تمن عليها كنتها أو تتضايق من وجودها.

- كم أنت مسكين... وسارعت الى دس المبلغ تحت وسادته؟

- لماذا تستغرب من هذا الإتفاق... أنا عرفت رجلا فلاحا إبان

حرب من الحروب التي مرت علينا إستدان ألف دينار ليستطيع زراعة أرضه في الموسم وموعد السداد عندما يأتون بجنازة ولده ويقبض المكرمة.

حدجه ذو الطاقية بنظرة إندهاش:

- حقا؟

- والله العظيم... على كل حال نحن لدينا المكاتبة ولا يستطيع الإنكار و.....

قاطعه ذو الطاقية:

- وما نفعها؟ مكاتبة تقول "عند وفاة الطرف الأول"... ستجعل الجميع يسخرون منا. أسكت لا يسمعك أحد!

- طيب... والشاهد أبو زهوان؟ كان حاضرا ووقع.

- أنت جاهل... أبو.....؟! الأفاق الذي لا أحد يعرف عنه شيئا. لا أحد يعرف من يمثل ومن يسنده. سمعت إشاعات تقول أن إسمه هذا ليس إسمه بل هو شخص إدعى أنه مهجَّر ولكنه في الحقيقة غير ذلك. البعض يقول أنه مجرم إستطاع أن يخدع الجميع ويدبر أمره بمساعدة أناس ليجد له ملاذا هنا... الناس فيهم ما يكفيهم وليسوا مهتمين بمن يأتي ويذهب.... خليها سكتة!

- نعم.... الغريب أنه كان يوجد هنا من يشرف على السكن ويدقق في خلفيات الساكنين.. ولكنهم كأنهم فص ملح وذابوا.... ذهبوا وتركونا مع أمثال أبي زهوان. من حينها ونحن نشهد قادمين

جددا أشكالا وألوانا..

ران الصمت عليهما لدقيقة ثم إلتفت ذو الكوفية ثانية الى الشيخ المنشغل ببستنة حديقته. همس في أذن صاحبه بإنفعال:

- زين... إذا لم يكن يريد أن يموت....

وإلتقط أنفاسه قبل أن يكمل:

- ..... نميته نحن!

خزره ذو الطاقية ينبهه الى أنه شط بخياله بعيدا وسأله:

- كيف يا ترى؟

- إسمع! أعرف من يعرف الذي يعرف شخصا في منطقة أخرى يدعى عواد الأعور لا يخطئ الهدف.

-أعور؟ و لا يخطئ الهدف؟ كيف سيصوب؟

- الأعور مجرد لقب لمهارته في إستعمال القناصة... ألم تسمع بأن فصيل الأشغال في الجيش سابقا كان يسمى فصيل القناصين لأن أغلبهم عوران؟ أما هذا فهو قناص درجة أولى... يكمن له في مكان ما، إطلاقة واحدة ولايثني... بالجبين عدل... إنه يعمل بالأجرة... وبالمفرد... سبيشل. ربما نحصل منه على تخفيضات.

- ألا يستخدم المسدس ومعه كاتم الصوت؟

- لا...لا... المسدس ليس من إختصاصه ولكن قناصته معها كاتم صوت أيضا. يصوب من بعيد و... الله معاك يا منحدر!

نهض ذو الطاقية وهو ينظر الى صاحبه ويهز رأسه بمرارة:

- يا لعقلك!

نهض ذو الكوفية أيضا وتمتم بإرتباك:

- مجرد إقتراح.

- إقتراحك كمكاتبتك... كارثة.

- إنس الموضوع... كنت أمزح.... من حرقة قلبي.

تظاهرا بأنهما عابران منصرفان الى داريهما، لكنهما توقفا عند سياج الصفيح وأطلا على العجوز الذي كان يراقبهما من طرف خفي. قال له ذو الطاقية:

- يبدو أنك بصحة جيدة حجي.... ما شاء الله.

إعتدل العجوز وقال بمسكنة جاهدا أن يظهر إمارات الضعف:

- والله غصبا علي.. صحتي متدهورة... لكن الطبيب نصحني بأن أحرك نفسي قليلا.

- تحرك نفسك قليلا؟

- والحركة القليلة تتضمن البستنة؟

أجاب الشيخ بنبرة واعظة:

- إعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ولدنياك كأنك تعيش أبدا.

- تعيش أبدا!

- صدقت!

جذب ذو الطاقية صاحبه من رسغه وإبتعدا. بعد أن سارا مسافة قال:

- تعرف... سواء كنت تمزح أم كنت جادا.. هذا العجوز المحتال، من ناحية الإستحقاق، يستحق أن يُسلط عليه الأعور.

بعد خطوات توقف فجأة وإلتفت لذي الكوفية وقد إرتسمت على وجهه علامات الجد:

- قل لي... هل قُتل الإبن الذي إستدان أبوه ألف دينار؟

- لا... مات الأب في العام نفسه والإبن لايزال حيا يرزق.

- والمال؟

- لم يجرؤ الدائن على المطالبة به طبعا.

نظر ذو الطاقية طويلا الى صاحبه ثم دمدم:

- خليها سكتة!

وتركه متوجها بخطوات سريعة نحو مكب النفايات ليبحث عن ولده.

٢٠٠٩

ثرثرة قصيرة
في ليل طويل

أظنك ناقما علي، وأظنك الساعة، لما عهدته فيك من غباء، تستعجل يوم فراقي وحري بك أن لا تستعجله لأنه سيكون، إذا حل، يوم ضياعك. مشكلتك هي أنك لا تستطيع العيش بعدي. من يطعمك أو يكسوك إذا مت أو حدث لي مكروه؟ ما دمت أنا حيا معافى فأنت مطمئن البال ليلك ونهارك، ضامن لكسوتك وطعامك. أنا وأنت وحدنا في هذا البيت المتداعي. ماتت أمك منذ زمن بعيد وتركتك لي. لم تكبر بعدها أبدا وإن إزددت طولا وجسامة.. أجل، أصبحت أطول مني بشبر كما كانت أمك بالضبط، وسمينا وأبلها مثلها... رحمها الله. قل لي.. أية لعنة حلت عليك في غيابي؟ ألم تكن شاطرا في الإبتدائية وكنت الأول في صفك دائما؟ ما الذي حدث لك وخرب عقلك في السنوات التي تركتك فيها عند أخوالك؟ ما أن عدت من الأسر وذهبت لإستعادتك منهم حتى وجدتك على ما أنت عليه. لم

أدخر وسعا لشفائك. قالوا تلبسك جني فقصدت بك الدراويش مرارا. أنت طبعا لا تشعر بما كنت أحس به من مرارة عندما كنا نذهب اليهم ونقضي الساعات الطوال عندهم. لم أكن آسفا على الأموال التي أنفقها في تلك السفرات البعيدة المرهقة ولكنني في آخر مرة حين عمد ذلك الدرويش الى جمع يديك بسيخ يخترقهما لكي لا تحركهما ورجليك بسيخ آخر لكي لا ترفس شاهدت رعب عينيك وإصفرار وجهك المغطى بالعرق وإرتعاش جسمك كالسعفة، شق علي أن أراك هكذا دون طائل ولم أعرضك بعدها الى هذا العذاب. أما الأطباء فإن مراجعتهم دوختني. أجل...أنت بليد ولا شك، لكنك إزددت في الأيام الأخيرة على البلادة عقوقا. لديك من النباهة فقط ما يكفيك لتناول الطعام والذهاب الى المرحاض والتطاول علي... تأكل من خير يدي وتحاول أن تضربني لأني وبختك على إبقاء التلفزيون مفتوحا طوال الوقت على قناة الأغاني الخليعة السخيفة تلك، يا حبذا أيام مائدة نزهت وزهور حسين، ولكن قل لي في أية حال نحن وأنت تـ... ألم أقل لك لا تنم على بطنك؟ إعتدل! أجل هكذا.. ولد طيب. إبتسم يا فتى... إبتسم! أنت ترى... أنا أمتدحك. لا أبخل عليك بمديحي حين تحسن التصرف ولكني مستعد لعقابك بشدة حين تسيئه كما فعلت أول أمس إذ أدبتك بعكازي القوي الذي ورثته عن جدك. ماذا دار في خلدك السقيم؟ قلت في نفسك هذا رجل قارب الستين، جريح حرب لا يقوى على صرعي وسأقضي أيامي آكل

من طعامه وأصفعه... لا.. لا! إياك وسوء الخلق! أنا قوي.. لا زلت قويا. عم تبحث؟ عن السجائر؟ لقد أعطيتك علبة اليوم عصرا. أترى؟ أنت لا تقوى على الحصول على شيء... لولاي. أين وجدت العلبة؟ تحتك؟ لقد سحقتها بجسمك الشبيه بجسم الفيل. لا شأن لي.. لن أعطيك ولا سيجارة... ولا تتعب نفسك بمحاولة إختلاس علبة أخرى فالبضاعة في حرز حريز داخل الدولاب. تدبر أمرك بما عندك! تركتك بضعة أيام تبيع السجائر معي لعل دماغك يتحرك فلم تتعلم سوى التدخين حتى كدت تمحق رأسمال البسطة التي نضعها عند باب البيت نبيع منها للعابرين ولأهل الزقاق البخلاء الذين لا يشترون منا إلا سجائر مفردة ويشترون من السوق علبا. أنا أفكر بك كثيرا وأنت لا تفكر إلا.. ربما لا تفكر أصلا. عندما ذهبت لزيارة بعض أقربائنا في العيد بقي بالي مشغولا بك خصوصا حين نظرت الى الحاجز الكونكريتي في الساحة التي يتفرع منها الشارع الموصل الى مرآب السيارات. كانت قطعة واحدة لا تسد سوى نصف الشارع ووضعوا في النصف الثاني صفائح مليئة بالحجارة وقطع الطابوق. كنت قد تعبت من السير عند عودتي ففكرت وأنا جالس أمام مقهى صغير أحتسي الشاي أن أي سائق سيارة مفخخة مغفل يمكنه أن يقودها بسرعة ويصدم الصفائح ويزيحها آخذا معه الجنود الواقفين عندها الى حتوفهم. قدرت من المسافة بيني وبين الحاجز أنه... لا سمح الله.. لو أن سيارة إنفجرت عند الحاجز فلن

يبقى منا نحن الموجودين حول المكان ما يستدل به على أن بشرا كانوا هناك، ولن يكون حال السائرين في ذلك الشارع المزدحم أفضل. قلت في نفسي.. غفرانك يا رب.. لو هاجمنا أحد حملة الأحزمة الناسفة فلن أستطيع النجاة وأنا بعرجي هذا. فكرت بك يا أحمق. فكرت بمصيرك إذا لم أعد اليك. ستظل أياما تنتظرني الى أن تتعفن وتموت خوفا. عدلت عن السير في الشارع وسلكت طريقا طويلا متعرجا عبر الأزقة يوصلني الى المرآب الذي ركبت منه الى هنا. الحياة في الخارج أصبحت خطرة... خطرة جدا يا ولد. أنت تفهم هذا على الأقل فأنت لو خرجت الآن لتجلس بباب الدار لا تلبث أن تعود مسرعا، تعود الى جواري.. جوار أبيك، وهو دأبك منذ زمن بعيد، من قبل زمن القصف والعبوات الناسفة والهمرات المتجولة التي تخيفك كثيرا. الحمد لله أننا لسنا بحاجة الى الذهاب بعيدا لكسب الرزق، لدينا الراتب التقاعدي وبسطتنا المباركة وإلا ماذا كنا سنفعل؟ أنا أعرج وأنت.. الحق أقول لك.. أنا أيضا مثلك لا أحب الإبتعاد عن البيت. حتى عندما أذهب لقضاء بعض الوقت في مقهى السوق لا أشعر بالراحة فأصحابي صاروا مملين. في آخر مرة كوّم (جاسم) أدويته التي لا يستطيع فراقها أمامنا على المنضدة، شرائط حبوب وقنينة بلاستيكية صغيرة لا أدري ما تحوي وتلك الأداة المقرفة البغيضة التي يبخ منها في حلقه بين الحين والآخر. ضجرت من ثرثرة (موفق)... يا الله كم يحب

اللغو! وإلحاح (خالد) علينا بلعب الدومينو، وسعال وبصاق (عبو)، لقد وبخه صاحب المقهى توبيخا منكرا. بيني وبينك.. المقهى نفسه لم يعد كما كان، إحتلت الشرطة بناية قريبة منه جعلتها مركزا، والمقهى يغص بهم طوال الوقت، أكثرهم شبان الله يحفظهم. إن الإنتحاريين مغرمون هذه الأيام بإستهداف المقاهي التي تلوح فيها قمصان زرقاء. سمعت أن واحدا منهم دخل مقهى وهو يحمل علاوة على الحزام المشؤوم قنينة غاز ولك أن تتصور ما حدث..ألطف بنا يا لطيف!! ما الذي أصابنا يا ربي؟! إيه.... إرفع بطانيتك عن الأرض! هل تريد النوم؟ معك حق.. التيار الكهربائي مقطوع والوقت منتصف الليل تقريبا والجو بارد. أنا أيضا سأنام. إحذر أن تعبث وأنا نائم بالفانوس تريد إشعال سيجارتك منه أو ما شابه فتحرقنا، أنا أعرفك..أعوج لا تفعل شيئا كما يجب وربما تركت الفانوس في مكان غير مناسب. خذ ولاعتي هذه! ضعها عند رأسك الخسيس ... سأنام.. وأنت لا تنم على بطنك.. النوم هكذا يسبب لك أشياء سيئة في الليل. إذا نمت هكذا ضربتك بالعكاز!

٢٠٠٧

حرب الفجر

أحدثكم عن مجمع (الكيف) الذي شهد صعودا حينا من الدهر فغدا كأنه مدينة ألعاب ضاجة نهارا ومزدانا بالأضواء الملونة ليلا تملأ الأرجاء منه أصوات الغناء وموسيقى الطرب ثم ضربه هادم اللذات ومفرق الجماعات فصار أثرا بعد عين، وسُلب ونُهب وهدمت بيوته وتفرق أهله أيدي سبأ.

شاءت الأقدار لي، حالي حال من ضاقت به مدينة بغداد لسبب أو لآخر فسكن تلك النواحي، أن أسكن في ضاحية بعيدة، وشاءت الأقدار أن يبنى مجمع الفجر جوار ذلك الحي. جاء هواة الفجر من رجال السلطة بهم وأنزلوهم هناك. لم يكن الإحراج الذي يسببه للناس سكنهم قرب الفجر يقتصر على أن أحدهم حين يجيب السائل عن مكان سكنه فإن السائل يغمز بعينه قائلا :

- تكرم... يعني قرب مجمع الكيف؟

بل تعداه الى أن طالبي اللذة من العامة غالبا ما يخطئون الدار

المقصودة فيطرقون باب عائلة قريبة وربما خرجت لهم الزوجة أو الإبنة فيسألونها وعيونهم تلتهمها التهاما:

- موسيقى ورقص فقط أم معهما...؟

وكم من مرة خرج الجيران على صوت الصراخ فوجدوا أحدهم وقد تناوشته الهراوات وقصارى ماكان يستطيع فعله هو حماية رأسه بذراعيه متقلبا على الأرض وهو يصرخ:

- والله ما أدري... والله ما أدري...

مع ذلك فجموع طالبي اللذة لم يكن لها انقطاع. إشتكى الأهالي مرارا فعمدت السلطات المحلية، ليس على ترحيل الغجر كما هو المطلوب، بل على بناء سياج حول المجمع بمثابة حدود ودليل، إلا أن السياج لم يمنع تنزه الطائشين في الجوار بحثا عن فرصة إستثنائية أو للتفرج وهكذا كانت الهراوات تؤدي دورها في زقاق واحد في الأقل كل يوم. إزدهرت المهنة الغجرية وأخذت أشكال من الفتيات في عمر الزهور تأتي لمزاولتها من مختلف مناطق العراق ولم يعد المجمع يتسع لهذا التطور وحيث أن بعض ساكني دور الحي ملوا هذا الوضع قرروا أن يضربوا ضربة العمر وينتقلوا الى داخل بغداد فباعوا دورهم الى الراغبين في الشراء من مدراء أعمال الصنف الراقي بأثمان لم يحلموا بها يوما، وهكذا سكنت فيها الجميلات اللواتي لا يشبهن الغجريات الأصليات ذوات البشرة الترابية الداكنة، يعني تحلقت بيوت (البرجوازية الغجرية) حول المجمع.

أمام أحد تلك البيوت صادفتها.

كنت ذاهبا ذات صباح لقضاء أمر مهم في مكان قريب، ولكي أصل سيرا على الأقدام بأقصر طريق كان علي المرور من هناك. كانت تقف أمام أحد الأبواب مرتدية ثوبا أبيض كالذي ترتديه العرائس خفيفا يشف عن بعض مناطق جسمها، وحين مررت بها سمعتها تقول:

-والله حلوة هذه المسبحة!

كنت أنا حامل المسبحة ولم يكن يوجد غيري في الشارع فتوقفت وقلت لها:

- أعجبتك؟

فردت:

- لا...أعجبني حاملها!

فكرت أنها تريد أن تستفتح يومها بي. لكن إختيارها لرجل طلّعت صعوباتُ الحياة حبَّ اللهو من عينه لم يكن موفقا. حاولتُ أن أكون لطيفا فقلت:

- مرة ثانية... الآن عندي شغل.

لاحظت خيبة أملها على وجهها الأبيض المدور، ورأيت كيف ضاقت عيناها الواسعتان، وفترت شفتاها الممتلئتان عن كلمة «براحتك»! لم أمرّ من هناك بعد ذلك لسنوات ولكني حفظت صورتها في ذاكرتي، ثم تبين لي أنها كانت محفورة في ذاكرتي وليست مجرد محفوظة.

في العام ٢٠٠٣عند دخول الأمريكيين الى بغداد رأيتها مرة ثانية. في تلك الأيام كانت فرصة السكان الناقمين على الغجر للإنقضاض عليهم، بغياب السلطة وإنهيار مؤسسات الدولة، فأخرجوهم من المجمع والدور المحيطة به. كنت واقفا بباب بيتي أشاهد طوابير الغجريات كأنها طوابير سبايا، لم يكن يوجد فيها غير عدد قليل من الرجال كبار السن والأغلبية كانت من النساء والأطفال، يسيرون جميعا دون عجلة والنساء المرتديات الثياب زاهية الألوان كمتسولات العجم وفوقها العباءات يثرثرن متذمرات وهن يواصلن مسيرهن. لم تكن لتخطئها العين وسطهن، وكان بإمكان أي شخص أن يقسم بأنها ليست غجرية، سافرة وترتدي ثوبا أزرق فاتحا مزينا بزهور صغيرة بيضاء والى جوارها يسير طفل لايتجاوز السادسة، وهو أيضا كان يختلف عن باقي الأطفال الحفاة الوسخين، لكنه كان حنطي البشرة كستنائي الشعر. عرفت أنه كان معها لأنها كانت أحيانا تكلمه وتقوده من يده. يبدو أن مثيلاتها من «طبقتها» كن قد تركن المجمع قبل فترة. عرفتها ولكني لم أكن أتوهم لأي سبب أنها ستعرفني فقد مضت سنوات على لقاء عابر. مرت من أمامي في الطابور المتناثر المتقطع بأتجاه الشرق.

في الجانب الغربي من الحي وعند بناية الفرقة الحزبية كانت تدور أحداث مختلفة، وكما عرفت فيما بعد، عندما هوجم شبان الغجر توجهوا الى مستودع الفرقة الحزبية ودارت بينهم وبين

رجال من المعدان معركة للإستيلاء على ما فيه من سلاح إنتصر فيها الغجر وأزاحوا المعدان. حينئذ كنت في منزلي أسمع أصوات القتال البعيدة وأمنع أطفالي من الخروج غير أن إبن شقيقتي، التي كانت على خلاف مع زوجها وقصدتني قبيل إندلاع الحرب، كان شيطانا صغيرا فأفلت مني. أخرجت كيس التبغ الذي إشتريته تحسبا للظروف وكنت أدخن منه مقتصدا لأكثر من شهر، قدرت أن الباقي سيكفيني ليومين أو ثلاثة مع الإقتصاد. جلست في باحة البيت وأخذت ألف منه السجائر وأضعها في علبة سجائر فارغة وأنا أفكر في «الفتاة». من أين هي؟ لماذا لم تغادر و «طفلها»؟ ماقصتها بالضبط؟ هل رجلها أو من عساه يكون موجود؟ يقاتل مع شبان الغجر؟ أم ليس معها أحد ترتبط به؟ دخنت لفافة أو إثنتين من ذلك التبغ الحراق اللهاب وتمددت على بساط في الظل لآخذ قسطا من الراحة، لكن الراحة كانت بعيدة المنال فقد كانت شقيقتي تنوح على إبنها قربي، نهرتها فلم تسكت، قلت غاضبا:

– لعنة الله عليك وعلى إبنك الشيطان.. الله يأخذه ويخلصنا منه.

فإزدادت بكاء، ولم يكن أمامي غير أن أذهب للبحث عنه. لا أدري لماذا خلعت دشداشتي وإرتديت قميصا وبنطالا وحذاء وكأني ذاهب الى العمل.

فكرت أني سأجده حتما حيث يسود الهرج والمرج عند مستودعات

الشركات والفرقة الحزبية. هناك رأيت الفتاة للمرة الثالثة.

ربما عرفت الغجريات بطريقة ما أن شبان مجمعهن إستطاعوا إستعادته فعدن أدراجهن إلا أنهن تجنبن هذه المرة العودة عبر الحي لكي لايتعرضن لإعتداء المنهزمين وسلكن طريق السيارات المعبد الذي يوصلهن مباشرة الى بناية الفرقة الحزبية ومن هناك يدخلن في الشارع الترابي الموصل الى المجمع مارا بمحطة الغاز. كانت فكرة سلوك الشارع العام سيئة حيث تتركز الفوضى. لقد وجد المعدان مستودعا آخر للسلاح في معسكر جيش القدس القريب غنموا منه أسلحة وذخائر بينها قاذفات فتوجهوا من جديد لمحو عار هزيمتهم أمام الغجر. في اللحظات التي كانت فيها النساء العائدات مع الأطفال ينحرفن الى الشارع الترابي إشتعل الجو وأصبحن بين المتقاتلين فتناثرن كشياه داهمتها ذئاب وهرعن للإستتار والإختباء في البيوت القريبة. عندما وجد شبان الحي قوة تسندهم عاودوا هم أيضا الكر على مجمع الغجر فحوصر هؤلاء داخله لكنهم كانوا هذه المرة مسلحين تسليحا جيدا.

كنت أنا في شغل عن هذا كله بأمر إبن شقيقتي الملعون، أسير في الأزقة وأتحرى الأماكن الأكثر أمنا. عندما وصلت الى نهاية فرع يفضي الى الأرض الفضاء الكائنة بين الحي والفرقة الحزبية كان الوضع في تلك البقعة هادئا نسبيا إذ تركزت المعركة حول المجمع الذي يبعد مئات الأمتار داخل الحي، تلفت لأتأكد قبل المغامرة

بكشف نفسي، لا يوجد من الحركة سوى صبيان يتراكضون لأخذ ما خف حمله. ورأيت رجلا ساقطا عند سور الفرقة، ورجلا ببدلة عسكرية دون غطاء رأس ويرتدي نعلا يبتعد وهو منحن يتلفت نحو أشجار اليوكالبتوس المحاذية لبستان نخيل مهجور، ورجلا آخر يحمل دولابا على ظهره يبدو أنه وضع فيه سرقات أخرى ويركض رغم الثقل بإتجاهي، أما هرج السلب الواسع فكان بعيدا في الجانب الأخر أقرب الى الأمريكيين عند مستودع كبير. رأيتها هي وسط الساحة متربعة على الأرض تضع يديها في حجرها والى جوارها الطفل ممددا يتحرك بين الحين والآخر، كلما إقتربت منها وأنا أتلفت يمينا ويسارا كلما كنت أرى بوضوح بقعة الدم تحت الطفل. توقفت عندها، كان الطفل يتلوى بنزق كما يفعل الطفل عندما تطلب منه أمه النوم فيتمرد بوهن ملوحا بيديه ويرفس برجليه، دون بكاء أو صراخ، وهي صامتة لاتنظر اليه، مركزة بصرها على الأرض وقد إستحال بياضها الى إصفرار وغارت عيناها. عندئذ سمعت صوت إبن شقيقتي فإلتفت لأراه مع صبيين حاملا علب إطلاقات مسدس. ركضت نحوه لأني إذا تركته قد لاأعثر عليه مرة أخرى حيا. أمسكته بعنف فتناثرت العلب، وأخذت أجره حينا وأسحله سحلا حينا آخر حتى أوصلته الى البيت وهناك ضربته ضربا مبرحا، وأمه تدور حولي وتولول، حتى سقط مغشيا عليه. دخنت لفافة بأعصاب فائرة، مالبثت بعد هنيهة أن تذكرت فتاتي المجهولة وسيطرت علي

رغبة شديدة في العودة اليها هذه المرة. توجهت نحو الباب الخارجي فسألتني زوجتي:

- الى أين ذاهب؟

لم أجبها. إتخذت طريقي نفسه وعندما وصلت المكان لم أجدها. نظرت الى بركة الدم على الأرض الحصوية... كانت أكبر من أن تكون للطفل وحده.

٢٠٠٧

ضمـور

قالت المرأة ذات الثوب زاهي الألوان للمرأة ذات الجبة وربطة الرأس السوداوين بلطف:

- إنه يبكي.... ربما يريد رضاعة!

أجابت وهي تمد يدها في جيب جانبي لحقيبة من النوع الذي يعلق على الكتف موضوعة على الأرض عند الجدار:

- لا يشرب بالرضاعة... لا يستطيع أن يمسكها، كما أنه ما أن يشرب شيئا من الحليب حتى يتقيأه. نحن نعطيه القليل من العصير الطبيعي وقد أحضرت له بعضا منه.

زمت المرأة ذات الثوب الملون ببتلات زهرية متناثرة مختلفة الألوان شفتيها بإشفاق وهي تراقب أمه تخرج محقنة كالتي يزرق بها الدواء، ولكنها دون إبرة. سحبت بها من قنينة عصير البرتقال، صعد اللون البرتقالي شيئا فشيئا حتى امتلأت المحقنة. كانت تقف أمامه لتريه أنها تهيئ له ما يريد فيكف عن البكاء ويبدله بتكشيرة

من أسنان يخالط بياضها احمرار ونظرة خفيفة الحول لا يُعرف إن كان يوجهها الى أمه أم الى الساعة الجدارية في أعلى الجدار خلفها حيث صورة الشاب المبتسم عن يسار الساعة وسط مثلث أسود على خلفية مرقد احد الأئمة، وصورة قديمة عن يمينها، بالأسود والأبيض لرجل عجوز، هو والد الشاب، ممتلئ الوجه، حليق الذقن، بشاربين كثين، يعتمر الكوفية والعقال وينظر الى الكاميرا تلك النظرة التي لم يعد يستطيع أحد تقليدها، النظرة الرزينة الهادئة بمسحة من الكبرياء الذي يميز جيله. كلاهما كان ينظر عبر الغياب الذي خلفاه، والطفل نفسه كان يوجه نظرته المستكينة السارحة عبر فراغ هو صلته الوحيدة التي بقيت له مع صاحبي الصورتين، ويهمهم بصوت متذمر لا يحسن غيره إذا استاء، وغير ضحكة تخرج من حلقه مرتجة إذا فرح. لم يكن حتى ينتبه الى هرج ومرج الأطفال الفرحين في ليلة حناء عمته الصغرى، وهم يهجمون مارين بقربه في جوقات بين الحين والآخر ليدخلوا من الباب المؤدي الى الصالة التي تجتمع فيها النساء للاحتفال بالعرس القادم غدا ويخرجون من الباب الآخر المؤدي الى ساحة البيت، أو بالعكس، مستغلين تساهل الأهل معهم وانشغالهم عنهم، لا بل لم يكن يسمع إلا أصداء ضعيفة لأصوات النساء وهن يرددن أغاني الفرح على إيقاع التصفيق بأيديهن برغم أن الصالة لم تكن تبعد عنه سوى خطوات، ويبقى ينظر هكذا نظرته الساهمة في الاتجاه

الذي وضعوا فيه، قبالة الجدار، مقعده الخاص بالأطفال الرضع ولكنه كان مناسبا له لجسمه الصغير الهزيل بسبب إصابته بضمور الدماغ، لا يلتفت يمينا ولا يسارا، و لا يحرك حتى يديه اللتين مسح له أحدهم راحتيها ببعض الحناء، كأنه سارح في حديث مع النفس داخلي لا يُسمع منه إلا نمنمة أصوات. غير أنه كان قادرا على أن يتبين أمه إذا وقفت أمامه ويطلق لها ضحكته المغرغرة المرحبة. ابتسمت لضحكته بحنو وزقت شيئا من العصير في فمه فاختلط تمطقه بضحكته. قالت المرأة:

– مسكين... ست سنوات ولا يستطيع أن يتكلم أو يأكل، وهذا الهزال الفظيع.... ألم تستطيعوا أن تنقذوه من أبي صفار في الوقت المناسب؟

لم تكن أمه ترغب في إعادة كلام سردته عشرات المرات على أسماع أناس كثيرين دفعهم الفضول أو التعاطف الى السؤال، لكنها أجابت المرأة التي تربطها بأهل زوجها المتوفي علاقة قرابة بعيدة ولم تتعرف عليها إلا حينما خطب أخوها قبل فترة أخت زوجها الصغرى :

– لقد ركض به أبوه رحمه الله الى أطباء ومستشفيات ولكن دون فائدة... أصبحت حالته ميؤوسا منها ثم...

ورفعت بصرها الى صورة الشاب الثلاثيني

– ... حدث ذلك الإنفجار في سوق الحي قبل أربع سنوات و...

أكملت زقه بالعصير، وأعادت المحقنة والقنينة الى الحقيبة بحركة مضطربة، وتابعت سرد معاناتها على أسماع المرأة التي بدا عليها التأثر الشديد لما تسمع من تفاصيل عن الإنفجار الذي حدث وكيف عثروا على والد الطفل وعن الصعوبات التي عاشتها الأم بعد ذلك. وضعت يديها على كتفيها ثم عانقتها وقبلتها:

-الله يساعدك... عسى أن يفتح الله لك ولطفلك بابا من أبواب رحمته...

بعدها ربتت على الربطة السوداء بيدها اليمنى ثم جذبتها بيدها اليسرى من مرفقها قائلة:

- هيا فلنلتحق بالأخريات! تعالي أولا لنغير لك هذه الربطة على الأقل... لدي واحدة ستعجبك. لونها أزرق غامق بزهور هادئة البياض... ألوان محتشمة لا تتناقض مع حزنك..

أظهرت أول الأمر أمارات الممانعة وقاومت بعض الشيء جذبة اليد الرقيقة ولكنها أخيرا سارت معها خارجة من الباب باتجاه غرفة النوم في آخر البيت.

لم يغير انصراف المرأتين من أمامه شيئا، ولم تختلف نظرته، وهو على مسافة ثلاث خطوات من الجدار المطلي باللون التبني، كأنه لم يكن ينظر اليهما حتى قبل أن تنصرفا، بل يخترقهما بعينيه الذاهلتين، وهو مستلق الى الوراء قليلا، ناظرا الى الساعة عاطلة الزمن، وصورة الشاب الذي فتشوا ذات يوم في جسمه عن جروحه

القديمة لكي يتأكدوا من أن الجثة التي لديهم هي جثته، وصورة الرجل المتشح بالكبرياء الذي أكلته حرب لم يعد يذكرها أحد. ظل هكذا ينظر فيما تترامى اليه أصداء ضجيج الفرح وهرج الأطفال الذي يحاذيه أحيانا. ربما كان ينظر فعلا، وربما كان يصغي، يرهف سمعا يتلاشى، لأنه في لحظة ما، أطلق ضحكة مغرغرة قصيرة متوسلة وسكت.

٢٠١٦

أمسية صيف

تناول الكرسي الحديدي السفري الصغير المركون الى جوار السخان وفتحه وجلس عليه تحت السقيفة. أخذ يأكل بهدوء شطيرة كباب الدجاج. مضغ بهدوء لقمته وهو ينظر بطرف عينه، عبر الممر، الى حيث تجلس والدته عابسة أمام الطباخ المنضدي الموضوع على درجة السلم الإسمنتي الأولى ليسهل عليها العمل عليه وهي جالسة على الأرض. كانت مستاءة منه لأنه جاء بعد حلول الليل على غير عادته عندما يأتي للإطمئنان عليها يوميا ويبيت عندها بين يوم وآخر. رفضت تناول شطيرة الدجاج الثانية التي جلبها لها فوضعها في الثلاجة. كانت برغم إستيائها تعد له الشاي الذي يحب أن تعده له بنفسها منذ طفولته وحتى بعد زواجه، عندما كان يزورها بين الحين والآخر، وهي لا تزال تتمتع بصحتها وقوتها، فيجلس معها في المطبخ يحتسيان الشاي ويتبادلان أطراف الحديث، أو يعلو صوتهما إذا تطرقت في حديثها الى ذكر زوجته وأخذت تنال منها.

- تيار هواء يضرب النار...

ثم أكملت بلهجتها المناكدة التي اعتادها:

- أين وضعت لي هذا الطباخ؟... ألم تجد مكانا أفضل؟

أجاب دون أن ينظر اليها:

- أنت طلبت أن أضعه هناك..

إكتفى بما إعتبره جوابا مفحما لينصرف بانتباهه الى عنكبوت أسود يتحرك على الجدار أمامه، ضيق فتحتي عينيه وهو يركز النظر محاولا أن يتبين فيما إذا كانت توجد نقطة حمراء على ظهر العنكبوت، ولكن هذا لم يمهله ليتأكد وسرعان ما إندس في أحد ثقوب جدار الباحة. قال بخبث موجها كلامه الى أمه:

- لديك هنا الأرملة السوداء..

- ماهي الأرملة السوداء؟

أجابها وهو يمسك الشطيرة قريبا من فمه:

- عنكبوتة تأكل زوجها... ولدغتها قاتلة.

قضم من الشطيرة وقد شع وجهه باستمتاع التوقع لما سيسمع منها:

- هذه من نسائكم.

انفجر ضاحكا ضحكة مختنقة باللقمة في فمه.

إبتلع على عجل لقمته ومسح فمه بظاهر يده اليمنى وسألها:

– فكيف ستتحملين زوجة رحيم حين ينتقلان للسكن معك بعد أيام وأنت رأيك فيهن هذا؟

فغرت فمها مستنكرة وطفقت تعدد:

– سجودة! الحبابة! المسكينة التي لا تحل ولا تربط.... الفقيرة. لا...لا...

ثم صمتت هنيهة وقد أدركت فجأة أنها ناقضت ما قالته قبل حين:

– صحيح هي مثلها مثل غيرها من الكنات ولكنها أهون...

واصل الأكل وهو يهز رأسه مؤمنا على كلامها منبسط الأسارير فقد سمعها من قبل، غير مرة، تصف كل من كنتيها الأخريين بمثل ما تصف زوجة ولدها الأصغر الآن. فكر أنه ليس بوسعها أن تفعل غير ذلك فبعد وفاة والده وتردي حالتها الصحية لا بد لها أن تركن الى واحدة من زوجات أبنائها لتخدمها وما دامت ساجدة هي التي ستنتقل للسكن معها، وهي زوجة آخر العنقود، فمن البديهي أن يكون المديح من حصتها الآن.

كانت لا تزال تمتدح ساجدة عندما أنهى أكله ونهض متجها اليها فوجدها قد صبت له الشاي. إنحنى وأخذ القدح... وقف يراقبها تفرك صحنا خزفيا بإسفنجة وتغطسه في سطل مليء بالماء لتزيل عنه الرغوة، ثم ترتب الأواني الى جوار السلم غير بعيد عنها.

سكتت بعد أن أكملت تعداد كل ما خطر على بالها من خصال حميدة تنسبها الى الكنة الصغرى. وضعت الإبريق وعلبتي الشاي والسكر على الطباخ المطفأ واستندت الى الحائط. كانت في جلستها هذه على مرتبة إسفنجية تسد الطريق الى الجزء الداخلي من البيت ولا بد لمن يريد الدخول أن يعبر من فوقها بشكل ما. استدار عائدا في الممر نحو الباحة دون أن يدخل في المطبخ حيث وضع التلفزيون أيضا لأنها تجلس أكثر أوقاتها فيه.

جلس هذه المرة في الباحة على السرير الخشبي الذي صنعه بنفسه في الصيف الماضي من خشب الصناديق الفارغة في محل بيع المكائن حيث يعمل. كان بين رشفة ورشفة ينظر اليها. المرء في السبعين قد يموت في أية لحظة. أكثر ما يخشاه أن تموت وحيدة أو تموت وهو هنا معها... لوحدهما. لا يستطيع أن يتصور رد فعله أو الطريقة التي سيتصرف بها. لم يسبق له أن شهد موت أحد أمام عينيه. حتى عندما توفي أبوه قبل شهرين لم يكن حاضرا ساعة وفاته. ربما بدا له غريبا غاية الغرابة، وليس لغيره فقط، أنه برغم الموت بالتفجيرات والإغتيالات الذي بدأ ينتشر في أنحاء البلد منذ العام الماضي، لم يشهد، وهو الآن في الخمسين، موت شخص من لحم ودم أمامه، شخص حقيقي، وليس صورة في تلفزيون. لم يشهد أحدا يلفظ أنفاسه أمام عينيه، وإذا وجد نفسه يوما في موقف كهذا فمن المستبعد أن يصمد وقد يلوذ بالفرار، ولكن إن تطلب الأمر

مد يد العون وكان لزاما عليه البقاء فلا يظن أنه سيبقى الشخص نفسه أبدا وستظل أشباح الموتى وصور الأشلاء تطارده كل دقيقة بقية حياته، لن يستطيع أن ينسى أو يسلو، فما بالك بموت أمه أمام عينيه. طبعا هو لم يتساءل يوما إن كان عليه تهنئة نفسه أو الخجل من أنه لم يكن يوما ضحية مباشرة لما يحدث حوله من خراب. فضل وهو يحتسي الرشفة الأخيرة من الشاي أن يترك جانبا التساؤلات الكبيرة التي يراها أكبر من قدرة أي شخص على التصور والإجابة.

سيكون من الأفضل أن ينتقل رحيم للسكن هنا بأسرع وقت. هذه المرأة تذوي ولا يظن أن الأمر سيطول، وما يراه عليها من نشاط هو مجرد مكابرة. رآها تعدل اللفاف الذي وضعته على ركبتيها فعرف أنها ستحبو. خاطبها من مكانه بنبرة إستياء:

- لماذا لا تستخدمين الكرسي المتحرك في تنقلك؟ لماذا إشتريناه إذاً؟

ردت وهي تكمل ترتيب اللفاف:

- أستخدمه عند الخروج من البيت... عند الذهاب الى الطبيب. من السخف أن أعتلي الكرسي وأنزل كلما أردت التحرك خطوتين... أليس كذلك؟

لم يتوقع جوابا غير هذا. تحب أمه أن تكون على الأرض. رآها من باب المطبخ المفتوح تحبو ويعلو تنفسها. تحبو كالطفل، ببطء، تستند براحتيها الى الأرض، وتدفع نفسها، وعينها مثبتة على الأشبار

القليلة التي أمامها، ويخيل اليه أحيانا أنها تبذل جهدا لتتمالك نفسها كي لا تسقط جانبا، كالطفل الذي يبدأ أول حبوه. رؤيتها وهي تحبو هكذا غمرته بموجة من الرقة، والحنين الطفولي، وشعر برغبة جارفة في أن ينهض ويندس في حضنها، ويغفو غفوة مشتهاة منذ سنين. في تلك اللحظة تذكر ما روته له عن أيام حبوه، وتذكر قولها أنها صدحت بالهلاهل لأنه بعد أن حبا بأيام حاول الوقوف... هلهلت لأنه في محاولته الوقوف بالتمسك بمحمل الفراش سكب على رأسه الدهن الحر الذي جلبته لها أختها الساكنة في الريف، وكانت تحتفظ به في وعاء تضعه في الواجهة الوسطى للمحمل الذي رُسمت على زجاج خزانتيه الجانبيتين صورة حمامة وأشكال نباتية صارخة الألـوان. قالت له أنها صاحت فرحا غير عابئة بخسارة الدهن الحر: «شكرا لله... وليدي وقف....» وهلهلت لنفسها لأنه لم يكن يوجد غيرهما في البيت الطيني الصغير فقد كان والده في الجيش. خرجت وملأت جردلا بالماء من الصنبور الذي يقع في بداية الزقاق والذي تأخذ ربات البيوت القريبة حاجتهن من الماء منه، وعادت لتغسله في الطست وتبدل له ثوبه. لم تتذمر تلك الليلة كما في كل ليلة لأنه لا ينام إلا بعد أن يرهقها بل ظلت تغني له بصوت هادئ خفيض حتى نام.

- ماذا كنت تغنين لي في تلك الليالي؟

سألها وهو يفرش البساط على السرير ويضع وسادتين ثم يجلس

مستندا بظهره اليهما، ويمد رجليه مباعدا ما بينهما. كان سؤاله محاولة منه لتجنب التوغل في التأملات السوداوية، محاولته المحببة لجعل الحاضر محتملا على نحو ما بذكريات أيام تزداد بعدا. حاول أن يتذكر تفاصيل في ذلك الزقاق الطيني الواقع بين سدة وأرض فضاء تليها سدة أخرى بعدها بستان يقع على نهر ديالى مباشرة، ولكنه لا يستطيع سوى تذكر التفاصيل التي سردتها له أمه مرارا، وهي تفاصيل لا تنفع في تشكيل صورة واضحة الحدود والألوان لما كان بل هي مجرد كلمات يظل مشهدها غائما، بيوت آخرين لا يحتفظ لهم بصورة من الصور الحائلة لذلك الزقاق، ما عدا بيت النجار أبي جاسم الذي نجر لهم تختا ظل عندهم سنوات طويلة بعد انتقالهم الى بيت جديد مبني بالطابوق ومزود بالماء والكهرباء، وبيت القصاب سلمان الذي سقته أمه من حليب حمارتهم ليشفى من السعال الشديد، ومقهى راضي الذي تفصل بينه وبين بيتهم دار متهدمة. كانت تقام أحيانا حفلات الأعراس في باحة المقهى الواسعة المسيجة بحائط طيني بارتفاع متر، والمضاءة خصيصا للمناسبة بنشرة مصابيح يغذيها مولد كهرباء يستأجره أهل العريس مع مشغّله من باب الشيخ. تذهب أمه وبعض النسوة مع أطفالهن ليجلسن على مبعدة على مكان مرتفع يمكنهن من النظر من وراء حشد الناس، الجالسين على كراسي السعف مع امتداد الحائط داخل الباحة، تحت المصابيح الملونة التي تدور حولها

دوامات من الحشرات الطائرة من كل نوع، والواقفين خلفهم خارج الباحة، أو يجلسن في ركن لا تسقط عليه مباشرة أضواء المصابيح بحيث يشاهدن الغجريات بثيابهن الزاهية العجيبة وشعورهن الطويلة المحلولة، لا تكف كل واحدة منهن عن الدوران وهز كتفيها وتحريك رقبتها حركات عجيبة مع ضربات الطبل ونغمات الربابة وإيقاع الصناجات، وتروح بين الحين والآخر، على ضرب الطبل المتسارع، في إرتعاش يعصف بجسدها كأن نوبة ما أصابتها، نوبة ملؤها المتعة والإنتشاء تجعلها أخيرا تقفز عاليا، بالغةً ذروة اللذة، ثم تستقر على الأرض منحنية قليلا، ثانيةً ساقيها كمن تحاول الثبات على أرض لا تزال ترتعش طربا.

على العكس من هذه الصور القليلة المتناثرة التي أكملتها هي له بما لم يكن يتذكره أو يعيه كانت تفاصيل الحياة في البيت والتي أمدتها له بحياة أخرى في ذاكرته، بأصواتها، وألوانها، وروائحها، وهي تقص عليه يومياتها التي، وإن كانت رتيبة ويبدو فيها طفلا بلا أب، تكاد أن تكون كل ما يملك من تلك السنوات الأربع أو الخمس الأولى في حياته في الدار الطينية.

- أية أغان؟

سألت وهي تضطجع على جنبها فوق فراشها الذي تضعه هناك على الأرض قرب الثلاجة وقبالة التلفزيون الذي وضعه لها عند نافذة المطبخ على خزانة خشبية واطئة، وتتوسد بطانية

مطوية كانت موضوعة على طرف الفراش، جاعلة رأسها من جهته. أمسكت بجهاز التحكم عن بعد لتشغل التلفزيون وضيقت فتحتي عينيها لترى الأزرار ولكنها صرفت النظر عن مشاهدة القنوات التي أخذت تبدو لها بمرور الوقت مملة برغم تنوعها وكثرة برامجها. ألقت بجهاز التحكم بارتخاء وظلت يدها هكذا معلقة فوقه. أمال نفسه لكي يستطيع رؤية وجهها من حيث يجلس وقد إستبد به القلق وتساءل عن سبب توقفها عن الحركة فجأة هكذا. لم يكن بإمكانه تبين وجهها إلا أن تستدير قليلا في نومها لتكون في مواجهته بعض الشيء أو يتحرك هو ليكون عند الكرسي السفري. تحركت قليلا فرأى للحظات ملامح وجهها المائلة الى الإصفرار.

- الأغاني التي كنت تنوميني بها وأنا طفل رضيع...

- والله أنت بطران....

لكنها، بعد لحظات من التأمل، قالت بنبرة متمهلة:

- كنا نسمع أغاني كثيرة من الراديو الصداح لمقهى راضي... قال لي أبوك أنه بحجم التلفزيون الكبير وبطاريته سوداء كبيرة ويضعه على رف حديدي عال مثبت بأخشاب مبنية مع الجدار.... أغاني وحيدة خليل ولميعة توفيق و..... ألم أقص عليك هذا من قبل؟

- .... وكنت تحولينني من حضنك لتضعيني في مهدي الذي لم يكن سوى صندوق فواكه مصنوع من السعف...

إنحرفت في إضطجاعها قليلا لتستطيع أن تراه وهي تضع رأسها على الوسادة. كانت تنظر بعينين ساهمتين متعبتين وقد أضاء للحظاتٍ قسمات وجهها ظلُّ ابتسامتها الخفيفة النابعة من القلب لسماعها هذه الذكريات، التي حفظها إبنها عنها كلمة كلمة...

- ... أتذكرين؟ كنت تضعين تحتي فراشا خشنا، وتعلقين المهد، لتهزيه، بحبلين من شعر الماعز المفتول الى خشب السقف... سقف من الحصران التي تسندها بعض العوارض الخشبية التي كانت جذوع صفصاف إقتلعها أبي من ضفاف أنهار المشروع الزراعي الملكي القريب.

تناهى اليه صوتها الضعيف كصوت الموشك على النوم وهي تقول:

- فراشك كان كيسا محشوا بالتبن الذي جلبته من حظيرة أبقار بيت سلمان، وفراشي كان محشوا بالحلفاء وغطائي معطف عسكري طويل قديم لأبيك كان قد جلبه معه من فلسطين..

- وحيدين كنا.... لكم كانت ليالي صعبة!

إتسعت إبتسامتها ولكن عينيها كانتا تضيقان بوهن... إرتعش جسدها لذكرى ليال بعيدة مطيرة، وصوت قطرات المطر التي تنفذ من السقف وتسقط في الطست الذي وضعته هي وجعلت فيه خرقة تتلقى القطرات فتخفف من وقعها.

- أجل كان أبوك يخدم في معسكرات بعيدة... كنت في بعض الليالي حين أسمع في الخارج صوت حركة أو سقوط شيء وأخشى أن يكون الصوت صادرا عن لص أحدثك بصوت عال كما أحدث رجلا بالغا ليخاف اللص ويهرب.

يفتح فمه ضاحكا ضحكة صامتة وهو يرجع رأسه الى الوراء ناظرا الى السماء التي لم تعد كما كانت في طفولته كثيرة النجوم ويسأل السؤال الذي سألها إياه من قبل بمرح:

- وهل كان يخاف مني ويهرب؟

وتجيبه هي نفس الجواب:

- لم أكن أعرف إذا كان موجودا فعلا أم غير موجود...

سكتت وهي تستدير الى الخلف لتسحب ملاءة كانت خلفها وتغطي بها جسمها. هز رأسه مبتسما، فكر أن ذكريات الطفولة تظل كالأطفال غضة لا تشيخ ولكنها قابلة للضياع كالأطفال تماما، ولذلك هو يتفقدها بين الحين والآخر، معها، على أمل أن تستعيد ذكرى أخرى أو تفصيلا منسيا، ولكنه بمرور السنين صار يخشى أن يأتي يوم يتفقد فيه الذكريات لوحده، على ضوء يتلاشى لذاكرة تضمحل. أحس بوطأة سكوتها عليه، وحرك رأسه ببطء، نظر اليها، رآها مغمضة العينين، لا تتحرك، دقق النظر، هل تتنفس؟ تمنى أن تعاود الكلام، تأخذه من جديد الى طفولته، ولكنها كانت ساكتة، مضمومة الشفتين، وظل ابتسامتها الساكن على ملامح وجهها يرقد

بلطف. أرجع رأسه الى الوراء وقد إعتصره خوف جعله يعض شفته السفلى، ويغمض عينيه بشدة كأنه يطبقهما على تلك الذكريات والصور لكي لا تتبعثر.

٢٠١٦

فك الحزن

جلس هناك، في غرفة صغيرة جعلها مكتبا له في منزله، حيث وضع منضدته، ومذياعا، وجهاز تلفزيون صغيرا، وخزانة كتبه التي تضم مراجعه الهندسية، هناك حيث رتب منذ سنين ركنه الخاص لإنجاز تخطيطات هندسية كهربائية للشركات الصغيرة، ولقراءة مجلات علمية فيما يشغل التلفاز أو المذياع بصوت واطئ كعادته. لكنه هذه المرة جلس، دون قراءة أو مشاهدة لتلفاز أو استماع لمذياع، ينصت الى أصوات النسوة تأتيه من غرفة الاستقبال، منخفضة، مهمهمة. فهم، وهو في مكانه، ما يجري. كانت زوجته مع زائرتين من الجيران تحاولان إقناعها بأن تنزع ثوب الحداد على ولدها الذي قتل قبل حوالي عام. نظر من النافذة التي لا تطل، من حيث يجلس، على شيء سوى جدار الجيران العالي، الى الطابوق العاري الكالح، وهو يصغي الى الأصوات التي تتدافع بهمس.

تذكر اليوم الذي جلب فيه إبنه الوحيد الى البيت جثة هامدة

وقد ثقب الرصاص رأسه وصدره إثناء معركة نشبت في شارع الحي بين جماعتين مسلحتين قتل فيها معه صاحب محل العطور الذي ذهب ولده ليشتري منه قنينة عطر. وضعه في تابوت عند استلامه من المستشفى وأوصى من معه من أولاد أقربائه أن يحولوا، عندما يوضع التابوت في البيت لتبكي عليه النساء، بين أمه وبين فتحه لكي لا ترى وجهه المشوه. لم يطل وقوفه مع الرجال أمام البيت وطلب حمل التابوت خارجا، وعندما شرعوا بتغسيله قبيل دفنه لم يسمح لها أن تنزل من السيارة الى أن تم تكفينه. لقد فاجأه وأضناه نواحها، وهي المرأة التي عرف فيها الهدوء والبكاء الأقرب الى الصمت.

في ذلك اليوم الذي طُرق فيه الباب على عجل وفتحه ليجد نفسه أمام جار له يخبره بارتباك بمقتل ولده، فتماسك وعاد الى الداخل ليجلب بطاقة الهوية ونقودا ويخرج ليتحقق من صحة الخبر، كانت هي في غرفة النوم ترتب الملابس التي جمعتها من على حبل الغسيل. نظرت اليه، تلاقت نظراتهما للحظة. كانت قد سمعت إطلاق الرصاص البعيد دون أن يقلقها سماعه، رغم ما تشعر به من أسف وخوف على الناس، لإنها اعتادت أن تسمعه بين الحين والآخر، وهي تعرف أن ما يحدث في الشارع من فوضى عند حدوث قتال لا يبلغ بيتهم الصغير، المنعزل في نهاية زقاق، إلا أصداؤه. لكن غياب الإبن ورغبة الأب المفاجئة في الخروج أثارا في نفسها التوجس. رأى كيف توترت ملامحها شيئا فشيئا، اتسعت عيناها، وإمتقع وجهها، وألقت

بالملابس من يديها ولم تزد على أن سألته (ماذا حدث ياجليل!؟) صرخت بعدها دون أن تنتظر منه جوابا.

تصبح ذكرى مقتل ابنهما شريكتهما القاسية المحببة المدللة، مرشدة عواطفهما، ومدبرة أيامهما المتوحدة، قساوتها تعزز حلاوة الحـزن، والأسـى المتبادل، فيخدمانها بحرص الـذي لا يملك في الدنيا تأمينا على حياته سوى رضا مخدومه. تحل بينهما كالسيدة في بيتها، وكأنها تقيم في غرفة ابنهما التي كانا قد رتباها في حياته لتكون عش زواجه فإذا بذكراه تصبح بعد موته، في عيونهما، أرملة يرعيانها إكراما له ووفاء. أمه تتحين الفرص لتصعد الى غرفته حيث زمن الحزن عصي على القياس والتنظيم، وحيث الماضي هو الجـدران والأثـاث، والذكريات تفاصيل تعاد ولمسات تستعاد دون انقطاع، وحيث المكان للإبن بديل عنيد تفخر الأم به وبعناده، تسوي فراشه مـرارا وتكرارا، وتعدل صوره على جدرانه، وتتفقد ثيابه وتعيد كل يوم ترتيبها وحفظها في دولابه، وتداري مشاعره، وتلملم كلماته التي تنطق بها أشياؤه. تحرص أن لا تزعج قيلولته، وأن لا تنهره لكلمة متبرمة قالها يوما كما نهرته يومها، تعده أن لا ترد له طلبا بعد و لا تحول بينه وبين رغبة مهما شطت وغالت.

كان جليل يراقب توغلها في متاهة التوجع، ويخشى عليها من أن تغتال نفسها، من أن تبتلعها لحظة يحلو فيها للموجوع الاستسلام للنهاية فيجدها ميتة. هو أيضا يصعد الى الغرفة بين الحين والآخر

لكن صعوده كتفقد الأمين لعهدة عزيزة لديه أكثر مما هو صعود الى المبكى. لا يستطيع أن يتقبل أن يكون الحزن شرطا للحياة و جوازا للموت، ويبدو له بقاء قامته منتصبة ورأسه مرفوعا نوعا من الوفاء لكرامة هي كل إرث ولده. يعيل صبره و يعاتبها بشيء من القسوة إذ يرى اصفرار وجهها و احمرار عينيها، وهي تفهم، تفهم أنه لفرط حبه لها لا يريدها أن تتحول الى شجرة للدموع ومثابة للنحيب، فتبكي، تبكي هذه المرة إشفاقا على عجزها و توسلا بإرادة فارقتها. كانت قد طلبت منه أن يسمح لها بالنوم في غرفة ابنها إذا أرادت ذلك ولم يعترض مقدرا أن هذا سيساعدها في التخفيف من الحزن الذي إكتض به صدرها، لكنه أدرك فيما بعد أنها ذهبت الى أبعد مما يجب مع الحزن بحيث أصبحت العودة الى الحياة الطبيعية أشق عليها من الحزن نفسه، بحيث غدا الحزن رفيقا مستبدا يدعي أنه الدليل الى الوفاء و لا دليل غيره. في الصباحات أو المساءات التي تجمعهما كان يحاول أن يجد لاجتماعهما مسرات لا تلقى من سطوة الحزن اعتراضا، مسرات كالاحتجاج المسالم... تعليق على مناسبة عند الجيران أو خبر عن الأهل، مديح لمهارتها في إعداد طبق شهي أو لترتيب شأن من شؤون المنزل، وكانت هي تبتسم، يفتر ثغرها عما هو شبيه بالسرور، سرور مجامل... هذا فقط..

لا تمل المرأتان، بكل ما أوتيتا من مهارة الجدل، من تجريد زوجته سعاد من كل عذر بصوتين أنثويين، يبدوان عبر إصغائه

المتضامن معهما، كالشمس غير المرئية التي تخلع بلطف ذهبها على طابوق جدار أيامهما العالي الأجرد. لا تمل المرأتان من محاولة اقناعها بخلع الثوب الأسود ولبس الثوب الذي جاءتا به لفك حزنها، ولا تنيان عن الترديد

- حرام عليك لبس السواد كل هذه المدة... لا تعذبي ولدك... سيفرح لك وهو في قبره... كلنا فقدنا أعزاء.

ربما لمستا أخيرا منها لينا ووعدا بخير. انصرفتا بعد أن تبادلتا معها الكثير من القبل كأنهما بذلك تأخذان منها عهدا وموثقا. سمع الباب الخارجي يفتح ويغلق، وسمع صوت خطواتها وهي تعود الى غرفة الاستقبال. توقفت الخطوات للحظات ثم تواصلت مقتربة، ودخلت عليه سعاد وهي تحمل الثوب بين يديها مطويا. نظر الى قماش الثوب، أزرق بورود رمادية، اختيار موفق لإنتقالة محتشمة من حياة الحداد الى حياة واعدة بألوان أكثر بريقا وإنفتاحا. شعر بأن هذه هي اللحظة المناسبة ليأخذ بيدها، ليكسر قشرة التردد التي تزداد صلابة حولهما، ليتخطى معها حاجز الاستسلام اللا مرئي، السميك مع ذلك، لهموم تتقمص الذكرى، الى حقيقة الحياة، حقيقة أن لا أحد يعيش الى الأبد، ولا شيء يدوم، وعلى الأحياء أن يواصلوا ما كان الراحلون جديرين به، أن يواصلوا التمسك بالحياة. هي أيضا كانت بمجيئها إليه حاملة الثوب، تتوق لأن تخطو خطوة لا مسافة لها لو لم تكن باتجاهه وتقول كلمات لا معنى لها إن لم

يسمعها هو. قالت له بخجل:

- أنظر يا جليل هذا الثوب الذي جلبتاه لي.

نهض وتناول الثوب منها. أرسله على طوله وقربه من جسمها، ألصقه بجسمها جاعلا يديه على كتفها حاجبا عن نظره السواد كله. قال لها بابتهاج:

- الله يا سعاد.. ثوب بمنتهى الجمال... ليست لديك فكرة كم سيكون رائعا عليك!

هزتها هذه الكلمات المأمولة، وإنطلق من فمها المبتسم صوت ككركرة الطفل، قصيرة وسريعة، ثم... فجأة... إستعاد وجهها وجومه، وكأنها لامت نفسها على التمادي في إظهار فرحتها الأنثوية، وجذلها لما إعتبرته إطراء. أخذت الثوب منه وأعادت طويه وهي مطرقة قليلا، ساهمة. انسحبت وتوجهت نحو غرفة ابنها صاعدة السلم بخطوات بطيئة ونظرات مصوبة الى الأعلى. لم تنزل من غرفة ابنها الى أن حل الليل. ذهب جليل الى المطبخ وأعد لنفسه عشاء خفيفا، وشرب قدحا من الشاي، وقضى بعض الوقت يروح ويجيء. فكر أن يصعد ليجلس معها ويحاول، من خلال أحاديث مسلية، أن يشرح لها أن العناد ليس هو كبرياء الحزن، لكنه عدل عن نيته، قائلا في نفسه أنها قد سمعت اليوم ما يكفي. بعد قليل انقطع التيار الكهربائي. شغل مصباحا كهربائيا يعمل على البطارية وضعه في فسحة السلم على منضدة وهو يتمتم «ستنزل بعد قليل...

ستنزل..»، وأشعل مصباحا نفطيا ذهب به الى غرفة النوم، قلل ضوءه ووضعه على منضدة صغيرة، وإنطرح على جنبه في الفراش، موليا وجهه ناحية الجدار. فكر... «هل جرحت مشاعرها؟ هل كان علي أن أتصرف تصرفا آخر أكثر لياقة أو لباقة؟ أن أستعمل كلمات أخرى؟ أم أتركها لحالها؟ ولكنها هي التي جاءت الي طالبة رأيي...». أسئلة كثيرة تترجرج في ذهنه المتماوج بين اليقظة والنعاس. انتبه الى صوت باب غرفة الابن يفتح، وأصغى الى الخطوات الأليفة تنزل السلم، ثم، انشدّ متوترا الى الصرير اللطيف لقبضة باب غرفتهما، وأحس بها تقترب، تنحني عليه، تصعد الى السرير، تتمدد خلفه، لصقه تقريبا، نحوه، أحس بيدها تستقر على زنده، وسمع صوتها المتهدج وهي تسأله:

– هل سيكون ابننا مسرورا يا جليل؟

– مسرور لأي شيء يا سعاد؟

– لأني فككت حزني؟

– ماذا يقول لك قلبك؟

– .... لا أدري... قل لي أنت!

– ما الذي يتمناه إبن لأمه؟

– .....

– لا تخجلي من نفسك يا سعاد ولا تخافي منها... هل يقبل ابننا أن يكون حزننا عليه بيتا بلا باب أو نوافذ؟

التصقت به. أحاطته بذراعها.

- هل ظهر لك في المنام يا جليل كما يظهر لي؟

- ربما كان الأب يختلف عن الأم لحكمة أرادها الله.. لم يفارقني في يقظتي يوما. أتصدقين يا سعاد أننا حين نريد مغادرة البيت لأمر ما... للتسوق أو لزيارة أهلنا.. أحيانا يخيل إلي أننا نسيناه وحده في البيت فتتوقف يدي للحظة وأنا أقفل الباب بالمفتاح مصدقا ما خيل إلي.

زادت من احتضانها له واضعة راحة يدها على صدره. تصاعدت نبضات قلبها على ظهره. نظر الى يدها التي استقرت على موضع قلبه، ورأى ردن الثوب الجديد يلتمع حول ساعدها المستقر على خصره، فأغمض عينيه وراح في اطمئنان عميق.

٢٠٠٩

تنويهات

❖ **بلابل برية** / لم تنشر سابقا.

❖ **قطرات الغبش**/نشرت في مجلة الإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق (الأديب العراقي) العدد ١٢ شتاء ٢٠١٦.

❖ **الضبع**/ نشرت في جريدة الزمان العدد ٢٨٧٤ يوم ١٧ كانون الأول ٢٠٠٧.

❖ **حلم عشوائي**/ لم تنشر سابقا.

❖ **ثرثرة قصيرة في ليل طويل** / نشرت في مجلة العربي الكويتية في عدد مايو ٢٠٠٧ بعنوان (ثرثرة في ليل طويل).

❖ **حرب الغجر** / نشرت في جريدة المدى بتاريخ ١٦ آيار ٢٠٠٧.

❖ **ضمور** / نشرت في جريدة الصباح العراقية يوم ٤ آب ٢٠١٦.

❖ **أمسية صيف** / لم تنشر سابقا.

❖ **فك الحزن** / نشرت في جريدة الزمان بتاريخ ٥ تشرين الأول ٢٠٠٩ ثم أعادت نشرها مجلة آفاق أدبية العراقية في أحد أعدادها.

نبذة عن القاص:

ولد جودت جالي

في بغداد بقرية الرستمية سنة ١٩٥١. كاتب ومترجم عن الإنكليزية والفرنسية. كتب القصيدة والقصة وله نصوص منشورة منذ السبعينيات. له من ترجمته وتحريره عن الفرنسية (نصوص عن بول ريكور... العدالة والاعتراف) ٢٠١٢ و(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) ٢٠١٦ وترجم فصلا من الفرنسية الى العربية لكتاب (الأقليات في العراق) لمحرره سعد سلوم، وله كتابان معدان للطبع، كتاب مقالات في الثقافة (تأليف) وكتاب مقالات في الإستشراق (ترجمة). كان قليل النشر في ظل النظام السابق ثم إنقطع عن النشر والكتابة تماما في التسعينيات حتى سقوط النظام، وهو يعكف الآن على جمع النصوص التي نشرها سابقا في كتاب.

المحتوى

بلابل برية ٥

قطرات الغبش ١٨

الضبـع ٣١

حلم عشوائي ٣٦

ثرثرة قصيرة في ليل طويل ٥٠

حرب الفجر ٥٥

ضمـور ٦٣

أمسية صيف ٦٨

فك الحـزن ٨٠

نبذة عن القاص ٨٩

إصدارات دار الروسم
للصحافة والنشر والتوزيع

٢٠١٣

من العنف الى التراحم.....فيرن نيوفيلد ريديكوب

.....ترجمة سهيل نجم و مصطفى ناصر

سرطان - نثر اسود.....علي وجيه

خسوف الضمير.....رعد زامل

رسالة من بيدق ميت.....عبير سليمان

قصائد تمشط احزانها.....سعد الحجي

بريد الأب.....فـرج ياسين

اذا دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة.....هاتف جنابي

أغنية شخصية.....سلام دواي

تأويل المتشابه في عينيها.....ميثم الحلو

٢٠١٤

الرواية العراقية... صورة الوجع العراقي.....حسين السكّاف

طاقة الحب.....حسين السكّاف

ضفاف أمستل.....صالح حسن فارس

عن الحبّ والغربة.....خديجة السعدي

اقتفاء المعنى.....واثق غازي

صنعة السرد.....د. سلمان كاصد

القارئ في السرد.....عبد الغفار العطوي

جنّة ابي العلاء.....عبد الكريم كاصد

اشكاليات الخطاب النقدي المعاصر.....د. علي حسين يوسف

حينما تتوهج الكلمة.....د. علي حسين يوسف

قميص قدّته الحرب.....علي ابراهيم صافي

أعمال شعرية.....قيس ياسين

حينما تجلّت بين يديه.....رحيم زاير الغانم

٢٠١٥

لهب قبل الغياب.....رياض الفرطوسي

كاهنات معبد اور.....رسمية محيبس

حرية المضاعفة.....محمد قاسم الياسري

إلى الهور أيها الارنب.....محمد قاسم الياسري

خط أزرق - خط أحمر.....علاء شاكر

المثقف التكفيري.....علي حسن هذيلي

هو الذي أضاع الحكاية.....علي حسن هذيلي

تمثلات ليليث.....أمجد نجم الزيدي

أصابع عطشى وحليب ازرق.....محمد الخفاجي

دروس في التحليق.....ناديا حيدر

الفساد في العراق.....موسى فرج

سنوات الفساد.....موسى فرج

حامل الخرز الملوّن.....زعيم نصّار وميثم الحربي

الحياة في غلطتها.....زعيم نصّار

الممثل والسينوغرافيا.....جواد الحسب

الفضاء الروائي في رباعية الخسوف.....د. خالد مرعي المسعودي

مدارات الكون السردي.....ماجد الغرباوي

أوبرا الأتان.....سامي المطيري

سلاماً ايها الحزب.....شعراء عراقيون
الظل والحرور.....ابراهيم عبد الرزاق اليوسف
ورود سائلة.....زهراء حسن خضير
التضاد في البحث البلاغي عند العرب.....د. اركان العبادي
خيط ليس للانتحار.....اسكندر حبش
امكانيتهم على تخيّل الغرق.....نصيف الناصري
نحات الريح.....هاني نديم
عكّاز تحت ضوء القمر.....سلام دواي
الرمز في الخطاب الادبي.....حسن كريم عاتي
ذكريات من غد الموتى.....عبد الرزاق حسين
ثمة كابوس في الشرفات.....فاضل سوداني
و ....عدنان الصائغ
عتبة النقص.....سعاد الخطيب
سطور الغيم.....ماجدة البارودي
رقصة على استحياء.....ايهم محمود العباد
رُقُم اينانا لكلكامش.....رشا السيد احمد
جاري الكندي.....كريم الزيدي
لوتريامون.....غاستون باشلار - ترجمة حسين عجة
على حافة الهاوية.....جعفر الحسيني
حينما تمضي حرّا.....عبد الزهرة زكي
سيرتها الأولى.....عادل مثنى خلف
حصن البكاء.....وسام تايه
خطأ في رأسي.....زين العزيز
اليوسفيون.....حسن كريم عاتي

٢٠١٦

الإمام والسجون.....خضر جميل الوحيلي

علب كبريت.....سمرقند الجابري

الحياة على دفعات.....زهرة مروة

فاصلة.....باسكال صوما

الألواح.....علاء المسعودي

أساليب التكرار في شعر محمود درويش.....علاء المسعودي

الدلالات الفكرية والرمزية للفن الاسلامي في التصميم المعاصر.....معتز عناد غزوان

التحول.....عبد الرزاق عبد الوهاب حسين

وشايات.....غيد الاسدي

ما قالته السيدة المراهقة.....سعد السمرمد

وافدة الفجر.....جابر السوداني

الشعر بعد الحداثة.....أثير عادل شواي

متعثرا بالاناء النذري.....حسين محمد عجيل

تحت سماء الجنوب.....عمار الوائلي

في ذاكرتي نهر.....كاظم جابر

قضية عفاف.....ستار التميمي

حروف اسمكِ.....أمير ناصر

كيف لي؟.....منار القيسي

الأشجار لا تغادر أعشاشها.....سعد ياسين يوسف

حروف في منتصف الضوء.....مختارات شعرية عربية

الإيزيديون التأريخ والإبادات.....خلدون سالم الياس

من سجن النص إلى فضاءات التأويل.....فاضل ثامر

من أوراق رجل.....منار القيسي

أكثر من عكازة للقلب الوحيد.....فهمي الصالح

سعادات الأمكنة المضاعة.....باسم الشريف
اللؤلؤة والمسبار.....رياض عبد الواحد
السرد التشكيلي في «المملكة السوداء» لمحمد خضير.....شاكر حمد
صلوات الفيروز.....عبد الكريم رجب الياسري
كل جسدي مشاع.....عبد الكريم العامري
مهدي محمد علي.....عبد الكريم كاصد
ضحى المرجة.....سالم محسن
أتوارى عن المنزل والغابة.....منذر خضير
قصف.....حيدر الكعبي
على قيد الحب.....حبيب السامر
لا يأتي أحد بعد مجيء النهاية.....آوات حسن أمين
حوبة ملح.....ناصر الموزاني
رأس كالنرد.....مهدي القريشي
طقوس في أخاديد المنفى.....ليلى الخفاجي
الببغاء مهرج الغابة.....باسم سليمان
سيرورة الشعر.....أ. د. نجم عبد علي رئيس
تسامي الأشكال.....د. ضياء الثامري
حارس المزرعة.....نبيل جميل
شذرات اللؤلؤ.....ناصر الموزاني
نصوص مهجرة.....طالب زعيان
أسئلة يومية في قاعات الرفض.....عبد الأمير العبادي
ممرات العبور.....خديجة السعدي
على حافة الجنون.....شيماء المقدادي
جيم جديد.....جابر خليفة جابر
العايش.. يرفع أيده.....ميّ أبو جلود
التحولات النصية في أسطورة اليهودي التائه.....د. سهير أبو جلود